

الأسطورة سبعة

رواية: الأسطورة سبعة

المؤلف: محمد تهامي

التحرير والتدقيق اللغوي: ريم آقبيق

الغلاف: راي مانزانيللا، سمية الإترابي

الطباعة: شركة نوبار ديجيتال

رقم الإيداع: 2016/22882

الترقيم الدولي: 978-977-90-4402-6

حقوق النشر © محمد تهامي 2016

الحقوق الفكرية للمؤلف محفوظة. جميع الحقوق محفوظة، وأى اقتباس أو تقليد أو إعادة طبع دون موافقة خطية من المؤلف يعرض صاحبه للمساءلة القانونية.

الأسطورة سبعة

محمد تهامي

شكر

تعجز كلمات الشكر عن إظهار إمتناني لشخصين لم تكن لهذه الرواية أن تخرج للنور لولا مجهودهما ومساندتهما الكبيرة لي.

محمد عباس كاتب قصص الخيال العظيم الذي وجهني في كل خطوة من خطوات هذا العمل وكان نعم المعلم والأخ والصديق.

ريم آبيق عاشقة اللغة العربية والتي قامت بتحرير الرواية في وقت قياسي وأخرجت كلماتها وأحداثها بشكل مبدع وفريد لتعطي لها روحاً وحياء.

حقاً لا أجد من كلمات الشكر والعرفان ما أستطيع أن أعبر به عن ما بداخلي.

شكراً...

(١)

”ما لي أراك شاردًا يا صديقي. أعلم أن فراق جدك أمر مؤلم وأعلم أنك كنت شديد الارتباط به، ولكن الحياة لا بد أن تستمر.“

قالها محمود لصديقه نوح بعد أن ارتشف رشفة من فنجان قهوته وهما جالسان في المقهى المفضل لديهما.

”نوح ... نوح ...“

كررها محمود عدة مرات بصوت عالٍ حتى انتبه نوح وأجاب وكأنه كان في عالم آخر...

”معتذرة يا صديقي. ماذا كنت تقول؟“

”يبدو أنك مهموم بشيء ما غير فراق جدك ... ما بك يا صديقي.“

تردد نوح قليلاً ثم أجاب:

”في الحقيقة إن فراق جدي كان مؤلماً لدرجة كبيرة. فقد كان هو الصديق والمعلم والمحفز ... لقد كان كل الظهر والسند بالنسبة

لي. ولكن ما يشغل بالي الآن هو ما حدث لي على مدار الأيام الستة الماضية”

اعتدل محمود في جلسته وقال بقلق:

“ماذا حدث... هل تعرضت لمكروه”

وضع نوح يده على وجهه وكأنه يحاول استجماع شتات أفكاره ثم سحبها وقال:

“حلم عجيب يا محمود! ... حلم عجيب يتكرر كل يوم على مدار الستة أيام الماضية بنفس التفاصيل.”

“حلم ... ما هو هذا الحلم”

قالها محمود باستغراب وقلق شديدين.

“أحلم كل يوم بجدي، بوجه جدي تحيطه هالة من نور يقترب مني ويهمس في أذني قائلاً (نوح استيقظ لتغير العالم ... كلمة السر سبعة)”

أبتسم محمود وتنهى بارتياح قائلاً:

“يا نوح لقد أقلقنتني يا رجل! ... هذا أمر عادي جداً. فعادة يحلم المرء بالأشخاص المقربين له بعد موتهم مباشرة لشدة قربهم منكم وعدم تصديقه لحظة الفراق. لا تقلق يا صديقي، هذا أمر طبيعي

وسينتهي قريبا. وحتى وإن لم ينتهي فما أنت ذا ترى جدك
العزيز كل يوم فلم القلق؟”

“لا يا محمود. هذا ليس حلما عاديا. فليس من المعقول أن يتكرر
كل يوم لمدة ستة أيام متتالية بنفس التفاصيل”

هز محمود رأسه وكأنه غير موافق على وجهة نظر نوح.

“كل ما يشغلني الآن هو جملة جدي التي يقول فيها (استيقظ يا
نوح لتغير العالم) ... ماذا يقصد جدي؟!.”

أخذ محمود يفكر ثم قال:

“ليس هذا فقط ... لقد قلت أنه ذكر كلمة سر ما، صحيح؟”

انتبه نوح وقال:

“نعم نعم معك حق. كان يقول (كلمة السر سبعة)”

صمت الاثنان حيث لم يجدوا أي تفسير لهذا الحلم وشردوا
الاثنان لبعض الوقت ثم قطع محمود الصمت قائلا:

“يا رجل لا تعطي الأمر أكبر من حجمه. كما قلت لك هو مجرد
حلم ففعلك الباطن مرتبط بجدك وذكرياتك معه بدرجة كبيرة.”

رد نوح في ضيق لعدم تفهم محمود لحالته:

“لم أعطِ الأمر أكبر من حجمه يا محمود. هذا أمر غير عادي وليس خدعة سخيقة من عقلي الباطن.”

ربت محمود على فخذ نوح وابتسم:

“عذرا يا صديقي أنا لم أقصد أن أتفه من روايتك، أردت فقط أن أخفف عنك.”

ثم نظر في ساعته واستطرد قائلاً:

“لقد تأخر الوقت ولا بد أن تستريح وتناول قسطاً كافياً من النوم. غدا هو أول يوم عمل لك بعد الإجازة التي أخذتها بسبب وفاة جدك رحمه الله. أتمنى أن يهديك الله لما فيه الخير”

نظر له نوح نظرة واهنة ثم قال:

“لقد بدأت أخشى النوم ... إن استمر هذا الحلم سأصاب بالجنون”

“لا يا صديقي ... الأمر يبدو محيراً ولكن بالتأكيد لن يصل لهذه الدرجة ... توضأ وصلي ركعتين قبل أن تنام وادعو الله أن ينيب لك الطريق.”

استراح نوح لهذه الكلمات وأجاب بابتسامة خفيفة:

“شكراً يا محمود على وقوفك بجانبني في الفترة الماضية. نعم الصديق والأخ أنت”

ضحك محمود وقال:

“ليس هذا فقط ... دعني أعزمك على (المشاريب) أيضا”

ضحك الاثنان وقاما حيث ذهب كل منهما إلى سيارته وأدار نوح المحرك ثم نظر إلى السماء من الزجاج سيارته وهو يقول في نفسه:

“يا ترى ماذا ستحمل لي هذه الليلة من مفاجآت. ماذا ستقول لي هذه الليلة يا جدي”

“يا رب”

قالها نوح بصوت واهن حزين وانطلق بسيارته متجها إلى منزله...

انتفض نوح من فراشه بشهقة قوية أيقظت زوجته التي قالت بفرع:

“نوح ما بك؟”

“إنه الحلم ذاته يا مريم. لا لم يعد حلما، هذه المرة أصبح رؤيا، لم يعد لدي شك في ذلك”

ربتت مريم على كتفه وضمته إليها قائلة:

“اهدأ يا نوح كل شيء سيكون على ما يرام”

انتزع نوح نفسه من حضنها وانتفض قائماً من الفراش قائلاً
بتوتر وانزعاج:

“لا لن أهدأ ولن أستريح حتى أفسر هذا الـ... هذه الرؤيا التي
أراها كل يوم”

“ماذا تفعل يا نوح. لماذا ترتدي ملابسك، إلى أين أنت ذاهب؟”

كان نوح يرتدي أحد قمصانه البيض المفضلة لديه والتي تليق
ببشرته السمراء وقوامه الرياضي عندما أجابها بضيق:

“أريد أن أستنشق بعض الهواء فأنا لم أعد أطيق النوم ولم أعد
أتحمل منظر الفراش.”

ظهر القلق على صوت مريم وهي تقول:

“حسنا يا نوح ولكن أبقى هاتفك متاحا كي يتسنى لي الاطمئنان
عليك”

“حسنا حسنا ... لا تقلقي يا حبيبتي”

أكمل نوح ارتداء ملابسه وانطلق خارج المنزل باتجاه سيارته
وما إن جلس على كرسي القيادة وأدار المحرك حتى التقط هاتفه
واتصل بصديقه محمود.

“محمود. أنا في طريقني إليك، لابد أن نتحدث. أكاد أجن فلا أستطيع تحمل ما يحدث لي.”

أجاب محمود في قلق شديد وهو ينفذ النوم من عينيه:
“خير يا صديقي. أين أنت الآن؟ وما الذي حدث لتخرج في هذه الساعة المتأخرة من الليل؟”

أجاب نوح بتوتر:

“إنه نفس الحلم يا محمود، نفس الرؤيا.”
“هل هذا معقول يا نوح. لقد قلت لك أنه أمر طبيعي بسبب شدة تعلقك ...

قاطع نوح بحدة:

“محمود لن أتحدث معك عن هذا الأمر مرة أخرى إن استمررت في استفزازي وأنا أشرحه لك.”

ارتبك محمود قائلاً:

“أنا أسف يا صديقي لم أقصد أن ...”

قاطع نوح مرة أخرى قائلاً بتوتر:

“هناك شيء جديد في حلم اليوم.”

“ماذا؟!..جديد؟!!”

“نعم. لقد قال جدي نفس الجملة (استيقظ يا نوح لتغير العالم.
كلمة السر سبعة) ... ثم أتبع قائلاً...”

صمت نوح لوهلة ثم استطرد قائلاً:

“هذه آخر مرة ستراني فيها يا نوح. لا تخذل جدك ولا تخذل
العالم. الوداع يا حفيدي الحبيب.”

قالها نوح وقد بدأت الدموع تملأ عينيه واستشعر محمود ذلك في
صوته فقال مهدئاً:

“اهدأ يا صديقي. أين أنت الآن؟ ساتي إليك حالاً.”

مسح نوح دموعه وقال:

“لا عليك يا صديقي. لا داعي لترك منزلك وزوجتك في هذه
الساعة المتأخرة من الليل. أنا أسف على اندفاعي وإزعاجي لك
ولكني كنت بحاجة لأن أتكلم.”

“ماذا تقول يا نوح أنت صديق عمري. قل لي أين أنت؟”
“أنا الآن في شارع قريب من منزل أهلي متجهاً إلى منزلك. لا
تترك منزلك أنا ساتي إليك.”

صمت محمود لوهلة ثم قال متسائلاً:

“لماذا لم تروي هذا الحلم لوالدتك؟ فلعل هناك في وصية جدك ما
يفسر هذا الأمر.”

انتبه نوح لما قاله محمود وأجاب:

“معك حق، كيف فاتني هذا؟.. حسنا سأذهب لعندها الآن
وسأتصل بك في الصباح. أعتذر مرة أخرى يا صديقي على
إزعاجك.”

“لا تقل ذلك مرة أخرى، ولكن أليس الوقت متأخرا على الذهاب
لعندها الآن؟”

نظر نوح في ساعته ثم قال:

“لن أستطيع الانتظار حتى الصباح.”

“حسناً، سأنتظر اتصالك، لن أنام قبل أن أسمع منك”..

قال نوح مبتسماً:

“حسنا يا صديقي العزيز. سأوافيك بالأخبار لاحقاً.”

لم تمر خمس دقائق حتى وصل نوح إلى منزل أهله وطرق
الباب بلطف منتظراً بضع دقائق قبل أن يقرع الجرس، وبعد
دقيقتين فتحت والدته الباب ونظرت إليه بقلق شديد قائلة:

“نوح. هل أنت بخير. هل حدث مكروه لمريم أو لابنتك لارا؟”

ضمها نوح لحضنه وقبل رأسها قائلاً:

“لا قلقي يا أمي كلنا بخير ولكني أود التحدث معك في أمر هام يخص جدي.”

أدخلته وجلسا سويا في غرفة المعيشة وأخذ نوح يروي لأمه تفاصيل الحلم الغريب الذي يراه لليوم السابع على التوالي وعلى الإضافة الجديدة والأخيرة في حلم تلك الليلة ثم قال:

“هل تحدث جدي معك بأي شيء. هل ترك في وصيته شيئا ما يمكن أن يفسر هذا الحلم يا أمي؟”

قالها نوح آملا أن يكون لدى والدته تفسيراً لهذا اللغز.

سكنت والدته وأخذت تفكر ثم قالت آسفة:

“ليتني أستطيع المساعدة يا بني ولكن جدك لم يفصح لي عن أي شيء يمكن أن يفسر هذا الحلم.”

نظر نوح في الأرض بأسف ثم نظر لوالدته وقام ليقبل رأسها قائلاً بحنان:

“لا تشغلي بالك يا أمي... ولكن أدعو أن يهديني الله للخير”

ضمته أمه لحضنها وقالت:

“فراق جدك مؤلم لنا جميعا يا بني ولعله خصك بهذه الرؤيا لأنها كان يريد أن تكون شخصا ناجحا ومؤثرا مثله. فلقد كان دائما يقول لي نوح سيكون خليفتي.”

ابتسم نوح وقبل أمه قائلاً:

“رحمك الله يا جدي”

اتجه نوح نحو الباب وهو لا يدري ماذا سيفعل وإلى أين سيوجه وما إن أدار مقبض الباب حتى استوقفته أمه قائلة بانفعال:

“انتظر يا نوح. لقد تذكرت أمرا هاما”

التفت إليها نوح وقال بلهجة يملؤها الأمل:

“ماذا يا أمي ... ماذا تذكرت؟”

“لقد جاء جدك لزيارتي قبل حوالي عشرة أشهر من وفاته وأخبرني أنه يشعر بأن أجله قد اقترب، ثم أوصاني بأنه إن توفى ألا يفتح أحد غرفة مكتبه مطلقاً وأن أعطيك أنت بالذات مفتاح الغرفة ومعها ظرف مغلق، بالإضافة إلى نسخة من مفتاح منزله. ولكنني نسيت ذلك الأمر تماماً بسبب طول المدة ولانشغالي وحزني على فراقه... انتظر سأحضر لك المفتاح والظرف، الحمد لله أننا لم نحتج فتح الغرفة وإلا لم أكن لأسامح نفسي على مخالفة وصيته.”

تسمر نوح في مكانه وقلبه ينبض بشدة فالأمر بدا مقلقا وكان وراء هذا الحلم حقيقة قد تغير مجرى حياته.

بعد بضعة دقائق عادت والدته وفي يدها مفتاح منزل جده ومفتاح غرفة مكتبه الخاص ومعها الظرف المغلق.

استلم نوح المفاتيح ثم أخذ الظرف وفتحه وأخرج الرسالة بداخله وأخذ يقرأ ما فيها وسرعان ما نظر إلى أمه نظرة تملؤها الدهشة والتوتر، فما كتبه جده في هذه الرسالة تركه وقد تضاعفت حيرته وتوتره عشرة عشر مرات على الأقل.

دق جرس الباب في منزل محمود فقامت زوجته سالي لتفتح الباب وما إن رأت الطارق حتى قالت مبتهجة:

“أهلا نوح أنا سعيدة برويتك. تفضل محمود بانتظارك ولكنه في الحمام منذ نصف ساعة”

قالتها وضحكت بسخرية، فابتسم نوح ابتسامة خفيفة وهو يدخل متجهاً معها إلى غرفة المعيشة وقال:

“شكرا سالي”

وقبل أن يدخلها استوقفته سالي وقالت مستغربة:

“ما بك يا نوح تبدو متعبا جدا. وجهك شاحب وكأنك لم تنم منذ أيام!”

تنهد نوح قائلاً:

“معك حق يا سالي فأنا لم أنم جيدا منذ فترة ولم أنم مطلقا منذ ليلة البارحة.”

“خير يا نوح ماذا ...”

قاطعهما محمود وهو ينضم إليهما ليدخلا جميعا إلى غرفة المعيشة قائلا:

“أهلا صديقي تفضل تفضل ... سالي من فضلك أعدي لنا كوبان من قهوتك المميزة”

“بل ثلاثة أكواب ... أريد أن أعرف ما خطب نوح فوجهه يدعو للقلق. هل وجد الخريطة المؤدية لكنز جده”

قالتها وأخذت تضحك بصوت عالٍ فقاطعها محمود بجديّة:

“سالي من فضلك الموضوع لا يتحمل سخريتك المعهودة. هناك أمور تتطلب بعض الجدية”

اندهشت سالي وقالت بإحراج:

“أنا أسفة يا نوح لم أقصد السخرية ولكني أردت أن أطف الجو وأرسم الابتسامة على وجهك، فأنا بصراحة لم أرك على هذا الحال من قبل حتى عند وفاة جدك. سأذهب الآن لأعد القهوة”

استدارت سالي لتخرج للمطبخ فنادها نوح قائلا:

“ثلاثة أكواب يا سالي، نحن بانتظارك”

ضحكت سالي بصوت عالٍ قائلة:

“هذا ما أردت الوصول إليه فلا يمكن أن أفوت هذه الجلسة المهمة.”

جلس نوح ومحمود على الأريكة المريحة في غرفة المعيشة وأطفأ محمود التلفاز ونظر إلى نوح قائلاً:

“هيا احكي لي ماذا حدث مع والدتك ليلة أمس. لم رفضت أن تخبرني على الهاتف وأصررت أن نتقابل بعد العمل؟ لقد قتلتني الفضول، لم أستطع التركيز مطلقاً في العمل اليوم.”

“أنا أيضاً يا محمود. لقد لاحظ كل زملائي في البنك أنني بحالة سيئة جداً فلقد كنت شارداً طوال اليوم.”

اعتدل نوح في جلسته ليخرج ظرفاً من جيبه الخلفي وأعطاه لمحمود قائلاً:

“اقرأ الرسالة داخل هذا الظرف. لقد تركها لي جدي مع والدتي وأوصاهما قبل أن يتوفى بعشرة أشهر أن تعطيني إياها مع مفاتيح غرفة مكتبه الخاصة بعد وفاته، وألا يقوم أحد بفتحها غيري.”

فتح محمود الرسالة باهتمام وقرأ ما فيها وقال باندهاش:

“غير معقول. أنا لا أصدق. هذا شيء عجيب لا نراه إلا في أفلام الخيال!. أليست هذه نفس الجملة التي يقولها جدك في الحلم.”

أجاب نوح في حيرة:

“نعم يا محمود لقد كتب لي جدي في هذه الرسالة تقريبا نفس الجملة التي يردها لي في كل حلم. (نوح استعداد لتغيير العالم، كلمة السر سبعة).”

صمت الاثنان قليلا حتى نهض محمود من مكانه قائلا:

“وماذا عن مفاتيح غرفة مكتب جدك الخاصة؟ لا بد أن هناك شيء يمكن أن يفسر لنا هذا الحلم.”

“نعم معك حق ولهذا جئتك فأنا أريدك أن تفهم إلى جانبي فلقد بدأ يصيبني بعض الخوف من هذا الأمر. أريدك أيضا أن تساعدني على فك خيوط هذا اللغز فأنت شديد الملاحظة ولديك قدرة فائقة على تحليل الأمور.”

تحرك محمود من مكانه قائلا:

“حسنا يا صديقي انتظرنى بضع دقائق حتى أغير ملابسى وننطلق سويا إلى منزل جدك.”

ما إن أنهى محمود هذه العبارة حتى دخلت سالي بصينية القهوة قائلة بابتسامتها المبهجة:

“ها هي قهوتي المميزة التي (تعديل المزاج)”

نظر محمود إلى نوح قائلا:

“حسنا يا صديقي. استمتع بالقهوة حتى أعود إليك.”

وذهب متجها إلى غرفة نومه في حين نظرت سالي إليه بدهشة
ثم سألت نوح:

“ما هذا هل ستخرجون؟”

أجابها نوح بقليل من الإحراج:

“نعم يا سالي، عذرا فإني بحاجة إلى زوجك بخصوص أمر هام.
أعدك أن أروي لك كل التفاصيل لاحقا. أنا خارج لانتظار
محمود في سيارتي.”

قالها دون أن يدع لها فرصة للرد وانطلق نحو الباب ومنه إلى
سيارته فأدار محركها وتكيفها وجلس شاردا بانتظار صديقه.

ماهي إلا دقائق قليلة حتى دخل محمود السيارة قائلا وهو يلهث:

“لم لم تنتظرنني في المنزل؟”

“لم أستطيع أن أروي التفاصيل لسالي، فعقلي مشغول ومشغول
بما نحن بصدهه الآن.”

“حسنا يا صديقي بإذن الله سنجد هناك ما يريحك ويطمئن بالك.
انطلق.”

انطلق نوح بسيارته متجها إلى منزل جده وهو لا يعلم إن كان سيجد هناك ما يطمئن باله فعلا، أم أنها ستكون بداية لأحداث يمكن أن تقلب حياته رأسا على عقب.

كانت سالي تشاهد فيلما كوميديا على التلفاز عندما رن هاتفها الجوال فنظرت إلى اسم المتصل قبل أن تجيب قائلة:

“أهلا مريم كيف حالك؟”

“بخير يا سالي ... كيف حالك أنتِ ومحمود؟”

“كلنا بخير الحمد لله... زوجك كان عندنا منذ قليل ثم خرج مع محمود ... يبدو أن هناك أمر هام يشغله، فوجهه وحالته كانت تدعو للقلق. ما القصة؟”

تنهدت مريم قائلة:

“نوح في حال غريب. فليلة أمس استيقظ فزعا من النوم بسبب حلم يراوده يوميا منذ وفاة جده، لقد ترك المنزل في وقت متأخر جدا ولم يعد حتى شروق الشمس فارتدى بدلته ليذهب إلى عمله في البنك ولم يتكلم معي مطلقا، حتى أنه نزل دون أن يتناول إفطاره. أنا قلقة جدا عليه.”

“لا تقلقي يا عزيزتي .. محمود معه ولن يتركه بالتأكيد. كيف حال ابنتك الجميلة.”

“بخير حال الحمد لله. حسنا لقد أردت فقط الاطمئنان عليك،
فلنبق على اتصال.”

“بالتأكيد سنرتب لزيارتكم في عطلة الأسبوع القادم إن شاء الله.”
في نفس اللحظة التي أنهت فيها مريم مكالمتها مع سالي أوقف
نوح سيارته أمام منزل جده ونزل منها هو ومحمود واتجها
مباشرة نحو العمارة.

“كيف حالك يا عم سعيد.”

“أهلا أستاذ نوح، يا مرحب يا مرحب بحفيد الغالي.”

قالها حارس العمارة لنوح وهو يدخل مع محمود مسرعا ليركبا
المصعد ويتجها إلى الطابق الثالث حيث شقة جده.

أخرج نوح المفتاح من جيبه وفتح باب الشقة ثم وقف قليلا أمام
العفش المغطى وأخذ نظرة عامة على المكان وكأنه يسترجع
ذكرياته الجميلة مع جده الحبيب.

قاطععه محمود وهو يربت على كتفه بحنان قائلا:

“هيا لندخل يا صديقي.”

أفاق نوح من حبل ذكرياته فأغلق الباب واتجه ببطء نحو غرفة
مكتب جده المغلقة وما أن فتح الباب حتى قال محمود في انبهار:

“ما أفخمها !. جدك كان رجلا عظيما. أشعر أني أدخل إلى مكتب رئيس الجمهورية.”

كانت جدران الغرفة مبطنة بأجود أنواع الخشب ذو اللون البني الداكن وفي صدر الغرفة مكتبة ضخمة ذات طراز فريد أمامها مكتب هائل يطابق لون الجدران وفخامتها وكأنك داخل غرفة ملكية حقا.

ابتسم نوح وأجاب:

“جدي كان أسطورة بكل المقاييس. فبالإضافة إلى كونه واحدا من أفضل الجراحين في العالم، فقد كان مهتما بالعلم والبحث العلمي ولهذا فقد قام بابتكار علاج فعال جدا لمرض السرطان مما جعله يحصل على جائزة نوبل للطب كما تعرف.”

“نعم لقد كان حقا رجلا أسطوريا في حياته وفي الأثر العالمي الذي تركه بعد مماته. رحمه الله”

نظر نوح إلى أنحاء الغرفة وقال متسائلا:

“والآن ماذا سنفعل؟ من أين سنبدأ”

صمت الاثنان وأخذا يفكران قليلا، ثم قال محمود:

“دعنا نفتح أدراج مكتبه لنرى إن كانت تحوي أية أوراق أو أي دليل يمكن أن يفسر لنا الحلم والرسالة”

جلس نوح على كرسي الجلد الفخم خلف مكتب جده وحاول فتح الدرج الأوسط الكبير تحت سطح المكتب ولكنه وجده مغلقا. فأعاد المحاولة مع باقي الأدراج فوجدها جميعا مغلقة.

“إنها جميعا مغلقة يا محمود. ماذا سنفعل الآن؟”

“هل نسيّت والدتك إعطائك نسخة من مفاتيح أدراج المكتب؟”

“لا أظن ذلك ما الذي سيجعلها تنسى. أظنها قد أعطتني ما تركه لي جدي بالكامل.”

أخذ محمود يفكر ثم قال:

“فلتبحث في هذه الخزانة وسأبحث أنا في المكتبة علنا نصل لأية نتيجة”

اتجه نوح نحو الخزانة وحاول فتحها لكنه وجدها مغلقة أيضا.

“إنها مغلقة أيضا. شيء غريب”

“المكتبة ليس فيها أية أوراق كلها مراجع علمية وكتب في مختلف المجالات، لا شيء ملفت للنظر على الإطلاق.”

جلس نوح على كرسي الضيف أمام المكتب واضعا وجهه بين كفيه وسرعان ما انضم إليه محمود جالسا على الكرسي المقابل ثم ربت على فخذة قائلا:

“اهدأ يا صديقي. لابد من وجود دليل هنا وإلا لما ترك جدك مفتاح الغرفة ومعه تلك الرسالة وأوصى ألا يدخلها أحد سواك بعد وفاته. فلنصبر ونفكر قليلا.”

“هل نكسر الأدراج؟”

“لا أظن ذلك. فكما ترك لك جدك مفتاح المكتب كان يمكن أن يترك مفاتيح الأدراج. أظن أنه تعمد غلق كل الأدراج والخزائن كي يدلك على المكان الصحيح.”

أجاب نوح بحيرة:

“وأين هو هذا المكان الصحيح!. إذا كانت كل الأدراج والخزائن مغلقة فأين يمكن أن نبحت عدى عن ذلك؟”

نهض محمود من كرسيه واتجه نحو المكتبة قائلا:

“دعني ألقى نظرة أخرى على المكتبة. فلتأتي معي لعلك تجد شيئا ينعش ذاكرتك.”

نهض نوح واتجه الاثنان نحو مكتبة جده الضخمة وأخذا ينظران بتدقيق إلى كل الأرفف حتى توقف نوح عند رف ما وقال مستغربا:

“ما هذا الصندوق يا ترى؟”

“فعلا لقد رأيتَه وأعجبني كثيرا. إنه يشبه الصناديق المصنوعة من العاج التي نجدها في خان الخليلي والتي يوضع المصاحف بداخلها.”

حاول نوح أن يفتحه ولكنه وجد عليه قفلا فقال:

“لا أظن أن بداخله مصحف فهو على شكل مسبع ومن غير المنطقي أن يكون مصنوعا لمصحف مستطيل الشكل.”

لمعت عينا محمود وقال متسائلا باهتمام:

“ماذا قلت؟ مسبع؟”

“نعم الصندوق سباعي الأضلاع.”

أمسك محمود بكنف نوح وقال بابتهاج:

“نوح هل نسيت، كلمة السر سبعة... الصندوق سباعي الأضلاع ... كل الأدراج مغلقة لتوجهنا إلى المكتبة كي نعثر على هذا الصندوق.”

أجاب نوح وكأنه لا يفهم ما يقصد محمود:

“لا أظن أن هناك أي مغزى لذلك. فالصندوق أيضا مغلق بقفل.”

أجاب محمود في حماس:

“ليس مهما فكسر هذا القفل ليس بالأمر الصعب. دعنا نكسره ونفتح الصندوق. أنا متأكد أن استنتاجي في محله.”

تردد نوح قائلاً:

“حسنا ليس هناك ما نخسره. دعني أكمل معك حتى النهاية مع أنني غير مقتنع بالعلامات التي تتحدث عنها.”

ذهب محمود نحو المكتب وأتى بفتاحة الرسائل وحاول فتح القفل الذي استجاب سريعا.

نظرا الاثنان داخل الصندوق فلم يجدوا سوى مجموعة من الصور لجدته مع بعض الأصدقاء والعائلة ونوح في مراحل عمرية مختلفة.

“ألم أقل لك أننا لن نجد أي شيء داخل هذا الصندوق، دعنا نعيده لمكانه وسأشتري قفلا جديدا لأعيد كل شيء كما تركه جدي.”

أخذ محمود الصندوق وجلس على المكتب وقلب الصندوق ليفرغ كل محتوياته على سطح المكتب وأخذ يفرز كل ما أمامه بينما تابعه نوح باستغراب وترقب.

“ما بك يا محمود ماذا وجدت؟”

قالها نوح لمحمود بعد أن رآه متسمرًا وهو ينظر لإحدى الصور.

“محمود ماذا وجدت؟”

كررها نوح متجها نحو المكتب ليطلع على الصورة التي أمسكها محمود بيده وما إن أصبح بجانبه حتى نظر محمود إلى نوح وأشار إلى الجزء السفلي يمين الصورة.

“يا إلهي!”

شهق نوح حين رأى ما أشار إليه محمود فمن الواضح أنهم قد وجدوا ما يؤكد أن الحلم كان رؤيا وأن هناك حقيقة كبيرة على وشك أن تنجلي...

“ألو د. حازم كيف حالك، أنا نوح حفيد د. ياسين رحمه الله، عذرا لاتصالي في وقت متأخر.”

قالها نوح متكلمًا من هاتفه الجوال مع صديق جده المقرب وهو مازال في مكتب جده مع محمود.

“أهلا أهلا. كيف حالك يا بني. يمكنك الاتصال في أي وقت فأنت أقرب الناس لقلب أعز أصدقائي، بل أخي الذي لم تلده أُمي... وبالتالي فأنت حفيدي أيضا.”

ابتسم نوح قائلاً:

“أشكرك يا دكتور، يعلم الله كم أكن لك من معزة أنا أيضا... أأ... معذرة هل أنت متواجد في منزلك الآن؟”

أجاب دكتور حازم بترقب وهو يستشعر أمرا ما في سؤال نوح:

“نعم يا بني ... هل هناك ما أستطيع أن أقدمه لك.”

“أريد أن أزورك الآن إن أمكن لأسألك عن أمر يخص جدي وللأسف لن أستطيع الانتظار حتى الصباح.”

أجاب دكتور حازم بقلق:

“خير يا بني ... بالتأكيد يمكنك ذلك، أنا في انتظارك.”

أجاب نوح مسرعا وهو يشير إلى محمود بأنه قد حان وقت المغادرة:

“شكرا دكتور حازم، هو خير بأذن الله.. أنا في طريقي إليك الآن.. إلى اللقاء.”

أغلق نوح هاتفه وقال لمحمود متنهدا:

“الحمد لله كنت أخشى أن أجده نائما أو غير متواجد في منزله، لم أكن لأستطيع الانتظار دقيقة واحدة.”

أجاب محمود وهو ينطلق مسرعا مع نوح ليغادرا المنزل:

“الحمد لله يا صديقي ... اطمئن فنحن بصدد كشف لغز اللحم هذه الليلة بإذن الله، كي تعود لحياتك الطبيعية وتهنأ بنومك.”

انطلق الاثنان نحو المصعد ومنه إلى سيارة نوح الذي أخذ يقود بسرعة كبيرة وما هي إلا دقائق حتى كانا يدقان جرس منزل الدكتور حازم.

“أهلا أهلا بحفيدي العزيز.”

قالها دكتور حازم وهو يفتح ذراعيه ليضم نوح إليه.

“كيف حالك دكتور حازم، أود أن أقدم لك صديق عمري الأستاذ محمود صاحب مصنع غزل ونسيج تولى إدارته في حياة والده وأكمل المسيرة بعد وفاته.”

ابتسم دكتور حازم وصافح محمود بحرارة قائلاً:

“من الواضح أنك قد ورثت قيمة الصداقة من جدك رحمه الله يا نوح. أهلا محمود سعدت برؤيتك، تفضلاً تفضلاً ... كم أنا مسرور بزيارتكما. وكأني أشم رائحة جدك يا نوح.”

دخل الجميع إلى غرفة الضيوف وما إن جلسا حتى حضرت زوجة الدكتور حازم وقالت مرحبة:

“أهلا نوح كيف حالك يا بني. نحن سعداء جدا بزيارتك.”

أجاب نوح في حرج وهو ينظر إلى د. حازم وزوجته:

“أهلا بحضرتك أنا أعتذر لزيارتي المباغثة في هذا الوقت المتأخر ولكن ...”

قاطعه د. حازم قانلا:

“لا داعي للاعتذار مطلقا. ماذا تحبان أن تشربا؟... لا بل فلنتناول العشاء معا.”

أجاب نوح ملوفا بيده:

“لا لا.. أشكرك كثيرا يا دكتور، أنا أريد أن أتكلم معك في أمر هام. وأعدك أن آتيك في زيارة خاصة لنتناول العشاء أو الغداء سويا.”

أحس د. حازم بالتوتر على وجه نوح فقال لزوجته:

“حسنا يا فاطمة هل يمكنك أن تعدي لنا الشاي بيديك الجميلتين.”

ثم استطرد مخاطبا نوح ومحمود:

“رحم الله جدك يا نوح ... لولا أن شجعنا أنا وزوجتي فاطمة على الانتظام في الرياضة لما كنا الآن في صحة جيدة وما استطعنا أن نخدم أنفسنا في هذا السن. قل لي ما هو الأمر العاجل الذي جئتني بصدده يا نوح؟”

بدأ نوح في سرد قصة الحلم الذي يراوده وصولا إلى تفاصيل بحثهم في مكتب جده ثم مد يده في جيبه وأخرج صورة وأعطاهم إلى د. حازم قانلا:

“لقد وجدنا هذه الصورة لك مع جدي ضمن مجموعة صور كانت في صندوق مسبع بمكتبة جدي الضخمة.”

تسلم د. حازم الصورة وقال مبتسما:

“كم تذكرني هذه الصورة بذكريات جميلة حين كنا في رحلة سياحية لماليزيا أنا وجدك. فقد كان يحب السفر كثيرا. ولقد...”

قاطعته محمود برفق مشيرا إلى الجزء السفلي على يمين الصورة:

“هل لاحظت حضرتك، مكتوب هنا رقم سبعة. هذه الصورة هي الوحيدة التي كتب عليها رقم سبعة وسط كل الصور التي كانت في الصندوق. نفس كلمة السر التي ذكرها جد نوح في الحلم وفي الرسالة التي تركها له مع والدته. ولذلك جنناك لعل عندك ما يفسر الأمر.”

نظر د. حازم إلى الصورة قليلا ثم نهض قائلا:

“انتظراني قليلا.”

في هذه اللحظة دخلت فاطمة بالشاي وقالت مرحبة:

“ها هو الشاي ومعه كعكة رائعة ستعجبكم كثيرا.”

“حسنا سأترككم قليلا لتشربا الشاي وتأكلا الكعك وسأعود بعد قليل. تعالي معي يا فاطمة لتساعديني في أمر ما.”

ترك د. حازم وزوجته نوح وصديقه لفترة تجاوزت الربع ساعة لم ينطقا خلالها بكلمة واحدة، فقط أخذًا يتبادلان النظرات ويفركان أيديهما في انتظار قاتل وكأنهما قد جلسا لساعات طويلة.

“أراكما لم تشربا الشاي؟”

قالها د. حازم وهو يدخل غرفة الصالون ومعه صندوق مسبع صغير، أصغر قليلا من الذي وجداه في مكتبة جد نوح.

“أعذرنا يا دكتور فلسنا بحالة تجعلنا نرغب بالطعام أو الشراب.”

جلس دكتور حازم ونظر بجديّة لنوح قائلاً:

“اسمع يا نوح. قد زارني جدك قبل وفاته بعشرة أشهر وأعطاني هذا الصندوق، وذكر أنه يشعر باقتراب أجله وطلب مني أن أسلمك الصندوق بعد وفاته وطلب أيضا أن أخبر أبنائي أن يفعلوا الشيء ذاته إن حان أجلي قبل ذلك، وكان شرطه الوحيد أن تسأل عن الرقم سبعة... تفضل يا بني هذا هو الصندوق وهذا مفتاح القفل الصغير. أنا لا أعلم ما بداخله ولم أفكر يوما في فتحه فهو أمانة من جدك فقد أوصاني ألا يفتحه أحد غيرك مهما حصل.”

نظر نوح إلى محمود في قلق ومد يده وأخذ الصندوق وفتحه ببطء وتردد. نظر الجميع داخل الصندوق الذي كان فارغا إلا من رسالة صغيرة ملفوفة بشريط ذهبي.

فك نوح الشريط وأخذ يقرأ المكتوب في الرسالة وما إن انتهى حتى قال في ضيق شديد:

“يا إلهي ... أنا لا أحتمل ذلك ... لا ليس كلمة سر أخرى ... لا أرجوك” ...

(٢)

جلس نوح ومحمود وزوجاتهما في صمت تام في غرفة المعيشة في منزل نوح مساء اليوم التالي واستمر الصمت طويلاً حتى قطعتة سالي زوجة محمود قائلة:

“نوح لماذا لم تنتبه لفحوى الرسالة، لقد انزعجت وازداد ضيقك عندما عرفت أن هناك كلمة سر أخرى. أنا أرى أن الرسالة بها مضمون هام جداً.”

أجاب نوح في ضيق:

“أنا أكره أسلوب الألغاز هذا ولا أدري لما اتبعه جدي. أظن أنني سأظل أنتقل من رسالة إلى أخرى ومن كلمة سر لغيرها حتى أفقد صوابي وأطرد من عملي الذي لم أعد أستطيع التركيز فيه نهائياً، وكما تعلمون فالخطأ في مجال البنوك يمكن أن يؤدي إلى كارثة.”

ردت مريم بلهجة هادئة في محاولة لتهنئة زوجها:

“سالي معها حق يا نوح. فحوى الرسالة قيم جداً ولا يجب أن تقف فقط عند كلمة السر الجديدة. هل لك أن تقرأها علينا ثانية ودعنا نتأمل ما جاء فيها.”

نظر نوح إلى محمود الذي أوماً برأسه موافقا فأمسك نوح
بالرسالة وأخذ يقرأ ما جاء فيها للجميع:

اعلم يا بني أن الشغف سر الحياة

لقد خلقت لتكون خليفة الله في أرضه وشغفك هو صك الخلافة

تذكر أنك على موعد مع الله فاذهب إليه بقلب سليم

شغفك سيجعلك تكشف للعالم معجزة الله في خلقه

ابحث عن شغفك في كنز ذكرياتك

عندما تجد شغفك سترى جنة الله في دنياه قبل أخراه

ابحث عن شغفك يا نوح وعندما تجده ...

كلمة السر: نقطة البداية

أغلق نوح الرسالة ونظر إلى الجميع قائلاً بحق:

“ها أنا ذا قرأتها مرة أخرى هل لأحدكم أن يفسر لي ما هذا
الهر... أستغفر الله العظيم. رحمك الله يا جدي، أستغفر الله
العظيم.”

ردت سالي بلا تردد:

“نوح يبدو أن جدك قد أدرك أن تكون أسعد الناس وأظن أنه
ترك لك رسائل إن نفذت ما فيها فمن الممكن أن تصبح أسطورة
مثله. بصراحة أنت وزوجي محمود تعيشان حياة تقليدية جدا ولا
أريد أن أقول كئيبة. سواء أنت في روتين البنك اليومي القاتل أو
محمود في مصنعه المترهل الذي لا يملك حتى التفكير في تركه
لأنه لا يريد أن يتخلى عن إرثه ومسؤولياته ولكن...”

رمقتها مريم بنظرة فيها بعض الضيق في حين قاطعها محمود
غاضبا:

“سالي كفي عن ذلك.”

أكملت سالي وكأنها لم تسمع ما قاله:

“ولكنكما لا تعيشان الحياة الحقيقية، لا تسمعون صوت قلوبكم!..
هل لكم أن تقولوا لي متى كانت آخر مرة قمتم فيها بعمل شيء
تحبونه؟ ... شيء تشعرون معه بالسعادة الحقيقية وتنسون الوقت
ومشاكلكم وحتى أنفسكم وأنتم تقومون به. هل فكرتم يوما في
البحث عما تحبون أم أنكم رضختم لأسلوب حياة فرض عليكم؟
أنت يا نوح بحثا عن لقمة العيش وأنت يا محمود التزاما بميراث
والدك. أنا أرى أن في رسالة جدك يا نوح ما يمكن أن يجعل من

حياتك سيمفونية رائعة وقصة ملهمة وما ذكر في هذه الرسالة ما هو إلا نقطة البداية.”

“معذرة يا سالي إن ما تقولينه في الحقيقة ينافي العقل وظروف المعيشة.. إنه كلام عاطفي غير قابل للتطبيق.”

قالتها مريم باقتضاب وأكملت:

“هل تريد من زوجي وزوجك أن يتركوا أعمالهم وأرزاقهم ويجريا وراء ما تهوى قلوبهم دون أي شعور بالمسؤولية. أنا حقا لا أصدق ما تقولينه!”

نظرت لها سالي بضيق وقالت في لهجة تحدي:

“ومن قال أنك لن تستطيعي أن تهتمي بمسؤولياتك وتكسبي الكثير من المال وتمتلكي عملا ناجحا في مجال تعشيقه في نفس الوقت! أنا أعتقد أنك لن تستطيعي تحقيق نجاح حقيقي يترك أثرا في الحياة دون أن يكون وراءه شغفا حقيقيا. نحن نحيا في عالم ضيق وفي سجن بنيناه بأنفسنا أو رُج بنا فيه برضانا الكامل، ومع الوقت ترسخ بداخلنا اليقين أن هذا ما يجب أن تكون عليه الحياة ونسينا لمُ خُلقنا وأن الله خلق لنا روائع في أرضه علينا السعي لاكتشافها، وأن علينا أن نضيف بصمتنا لنحول العالم لمكان أجمل ونظهر قدرات وإبداعات الله فيه.”

استشعر محمود أن الجدل سيتحول إلى مشادة كبيرة فنظر إلى ساعته ثم نهض قائلا قبل أن ترد مريم على زوجته:

“حسنا لقد تأخر الوقت هيا بنا يا سالي لآبد أن نذهب.”
“انتظر يا صديقي. دعنا نكمل حوارنا.”

“أعتقد يا نوح أن عليك الجلوس بهدوء مع نفسك، أنت بحاجة للتفكير واسترجاع ذكرياتك مع جدك كي تقرر إن كنت ستمضي وراء تنفيذ ما جاء في رسائله وخوض الرحلة التي يبدو أنها ستطول. خذ وقتك يا نوح فهذا الأمر لا يمكن أن يحسمه أحد غيرك. سأذهب الآن وسأصل بك غدا لأطمئن عليك. تصبحون على خير.”

رافق نوح ومريم ضيفاهما إلى الباب وودعاهما ثم أغلق نوح الباب ونظر إلى زوجته بضيق قائلا:

“ما هذا الأسلوب الذي تكلمت به مع سالي.”

قالت مريم ملوحة بيدها:

“إنها إنسانة لا تفقه شيئا في الدنيا سوى الاستمتاع والتهريج وهذا قد يجعلها شخصية لطيفة ومسلية، ولكن أن تدعي بأن الحياة يجب تعاش بهذه الطريقة وأن العمل يجب أن يكون بمرح ومتعة ومن هذا الهراء فهذا كثير!”

“نعم ولكن...”

قاطعته مريم بحدة:

“لا أريد أن أتحدث في هذا الموضوع. أنا ذاهبة للنوم فعندي اجتماع هام مع رؤسائي في البنك صباحا وأريد أن أنال قسطا كافيا من النوم.”

تحركت مريم باتجاه غرفة النوم وبعد بضع خطوات توقفت والتفتت لنوح قائلة:

“وأتمنى أن تنام أنت أيضا وتنسى هذا الموضوع السخيف الذي قد يؤثر على حياتك المهنية ويتسبب في أزمة كبيرة في عملك.”

قالتها ولم تدع له فرصة للرد ووقف مكانه مندهشا من حديثها ولكن على الرغم مما قالته فهو لم يستطع النوم واتجه إلى (البلكونة) وجلس يستنشق الهواء وأخذ يفكر وهو يقرأ الرسالة مرات ومرات ... فلقد عزم أن يأخذ قرارا نهائيا هذه الليلة إن كان سيسعى وراء كشف ما تحتويه رسائل جده أم أنه سيطوي هذه الصفحة تماما ويعود لحياته الطبيعية من جديد... قرار خطير ومهم قد يترتب عليه مستقبله كله...

استيقظ محمود وسالي من نومهما على صوت جرس الباب فنظر محمود إلى المنبه الموجود بجوار سريره ليجدها الواحدة بعد منتصف الليل فقال لسالي متعجبا:

“من يا ترى الذي يطرق الباب في هذه الساعة المتأخرة!.. (خيرا ان شاء الله).”

قالها ونهض من سريره ليفتح الباب وما إن رأى الطارق حتى اندهش وقال بقلق شديد:

“نوح ... ماذا حدث؟ ما الذي أتى بك في هذه الساعة المتأخرة وقد كنا عندكم منذ بضع ساعات.”

نظر إليه نوح وكأنه ينتظر الإذن بالدخول فقال محمود بحرج:

“عذرا يا صديقي تفضل دعنا نتكلم في الداخل.”

دخل نوح واصطحبه محمود إلى غرفة المعيشة قائلا:

“هل حدث خلاف بينك وبين مريم؟ سامحني يا صديقي أعلم أن سالي كانت سخيفة بكلامها، فمريم تقدر العمل كثيرا وبالتأكيد فإن كلام سالي عن الاستمتاع بالحياة يعتبر شيئا صيانيا بالنسبة لها.”

لم يجب نوح حتى جلس الاثنان على الكنبه ونظر له محمود بشفقة قائلا:

“ما بك يا نوح. قل لي فيم تفكر؟”

أجاب نوح وهو ينظر إلى الأرض بصوت شارد:

“سأتبع رسالة جدي يا محمود. لقد فكرت كثيرا وأعلم ما يمكن أن تؤول إليه الأمور في حياتي المهنية والأسرية، لكنني ببساطة

لن أستطيع أن أتناسى هذا الموضوع وأغلق صفحته فهو يسيطر على كل ذرة في عقلي وقلبي.”

“نعم القرار يا نوح.”

قالتها سالي مبتهجة وهي تدخل الغرفة لتتضم إليهم، ثم استطردت:

“والآن ما الذي تنوي فعله؟ وفقا لما جاء في الرسالة فإن عليك أن تجد شغفك. هل تعرف ما هو أكثر شيء تحبه في هذه الحياة؟”

نظر نوح إلى الأرض وقال بإحباط:

“ليس لدي أدنى فكرة.”

“معقول! فكر قليلا ألا يوجد أي مجال تعشقه وتستمتع بممارسته وتشعر أنه ينسبك الوقت ومشاكل الحياة (ينسبك نفسك زي ما يقولوا).”

“مطلقا، أنا حياتي روتينية للغاية. عملي كمدير فرع في البنك جعل من حياتي نمطا تقليديا وجعل تركيزي منصبا على الترقى الوظيفي المضمون ونتيجة لذلك فأنا لا أقوم بأي أنشطة أخرى. أنا أحب عملي وفخور بما أنجزته حتى الآن ولكن لا يمكن أن أسميه شغفا.”

سكت الجميع للحظة ثم قالت سالي:

“هل معك الرسالة الآن؟ أريد أن أعيد قراءتها.”

“نعم. لقد قرأتها كثيرا. تفضلي.”

أخذت سالي الرسالة وقرأتها أكثر من مرة ثم تهللت أساريرها
قائلة:

“ها هو المفتاح ... يقول جدك (ابحث عن شغفك في كنز
ذكرياتك). ألا يشير جدك في هذه الجملة إلى الطريقة التي يجب
أن تبحث فيها عن شغفك.”

ابتسم محمود قائلا:

“كم أنت عبقرية يا سالي. صحيح يا نوح فالعودة إلى ذكريات
الماضي وأيام الطفولة والمدرسة ستساعدك على تذكر ما كنت
تحب وما هي مجالاتك المفضلة حينها.”

نظر نوح وقال بإحباط شديد:

“لقد قرأت هذه الجملة مرارا وتكرارا ولكني حقا لم أتذكر أي
شيء على الإطلاق....”

توقف نوح ولمعت عيناه فقال محمود:

“ماذا هل تذكرت شيئا؟... هيا أخبرنا.”

“كنز ذكرياتك. رحمك الله يا جدي.”

قالها نوح مبتسما ثم أستطرد:

“هذه عادة كان قد عودني عليها جدي منذ طفولتي وهي أن أحفظ بالصور التي تحكي اللحظات والذكريات الجميلة وأضعها في صندوق وأسميه كنز الذكريات. كنا كثيرا ما نجلس سويا في منزل أمي ويطلب مني أن أحضر كنز الذكريات وأحكي له تفاصيل الصور الجديدة التي أضفتها إلى الصندوق.”

قالت سالي في سرور:

“جدا هذا شخصية رائعة فعلى الرغم من نجاحه كأسطورة من أساطير الطب فقد كان يعرف كيف يستمتع بحياته الشخصية والأسرية... وأين تحتفظ بكنز ذكرياتك هذا؟”

“لقد حولت كل الصور القديمة إلى نسخة ديجيتال وأحتفظ بها مع الصور الجديدة على الأيبياد الخاص بي.”

قال محمود بلهفة:

“وهل معك الأيبياد الآن؟”

“نعم في السيارة، دعوني أنزل لإحضاره. عذرا يا جماعة أعلم أن الوقت متأخر جدا ولكنني بحاجة إلى دعمكم في هذه الفترة.”

“لا عليك يا صديقي أنا وسالي متحمسان كثيرا لمساعدتك في رحلتك لاكتشاف رسائل جدك.”

قالها محمود وهو يصطحب نوح إلى باب الشقة ثم أتبع قائلاً
بينما نوح يدخل إلى المصعد:

“نحن بانتظارك.”

نزل نوح في المصعد مسرعاً إلى سيارته وفتح حقيبة السيارة
وأخرج الأبياد ثم اتجه عائداً بسرعة إلى شقة محمود الذي كان
ينتظره على الباب. دخل الاثنان وبدأ نوح في فتح الأبياد وهو
يلهث بشدة ثم ضغط على أيقونة ألبومات الصور وبدأ الجميع في
الاطلاع على كنز الذكريات حتى أوقفتهم سالي عند إحدى
الصور مندهشة:

“نوح هل كنت تعزف على آلة القانون؟ كم هذا رائع ... أنا
أعشق هذه الآلة.”

ابتسم نوح قائلاً:

“العزف على آلة القانون كان كل حياتي. هذه الصورة التقطت
في حفل تخرجي من المدرسة، يومها وقف أصدقائي وذويهم
يصفقون لي ما يقرب دقيقة كاملة، فلقد عزفت يومها على آلة
القانون أغنية (حلوة يا بلدي) بأسلوب جديد وفريد مما أدهش
الحضور. أيا لبيت الشباب يعود يوماً.”

قالها نوح ضاحكاً فاندثرت محمود قائلاً:

“نوح هذه أول مرة أراك فيها منتشيا ووجهك منير هكذا منذ وفاة جدك وبداية هذه الأحداث. فيمجرد تذكرك لألة القانون وذكرياتك معها تغيرت تماما. هذه بالتأكيد علامة يا صديقي.”

نظر إليه نوح وقال مستنكرا:

“محمود هل تمزح!. لقد توقفت عن العزف منذ قرابة اثني عشر عاما، ولا يمكن أن يكون هذا شغفي الآن، هي مجرد ذكريات وانتهت.”

ضربته سالي على كتفه ضربة خفيفة قائلة:

“سأقتلك. من قال أنها انتهت؟ ما الذي يمنع أن تعود للعزف مرة أخرى؟ ما الذي يمنعك من إحياء شغفك من جديد؟”

“بالله عليكم يا جماعة. هل من المعقول بعد وصولي لمنصب مدير فرع في بنك كبير وبعد نجاحي في عملي هل سأتحول إلى عازف قانون؟. هل جننتم! ثم إنني فعلت ذلك ستقتلني مريم، دعونا نقلب مرة أخرى في الصور بالتأكيد سنجد شيئا آخر، شيئا أكثر أهمية وقيمة.”

أجابت سالي وهي تستشيط غيظا:

“بل أنت الذي جننت لا اعتبارك أنك ترى نفسك ناجحا لمجرد تفوقك في عمل روتيني حولك إلى إنسان أجوف مفتقد للمتعة والإبداع في حياته. ثم عجباً لك هل تخشى أن تقتلك زوجتك لأنك تريد أن تحيا سعيدا؟! ماذا حدث لرجولتك؟!”

نظر إليها نوح وكأنها صدمته بحقيقة مرة بينما قال محمود
مستنكرا أسلوب سالي:

“سالي ... انتقي أفاظك، كيف تتحدثين بهذه الطريقة مع نوح!..”

ردت سالي بحزم:

“صديقك لا بد أن يستفيق مما هو فيه وأنت أيضا يا محمود. لا
تكابروا على الواقع وتعتبروا حياتكم سواءً كانت وظيفة أو حتى
عملا خاص مثالية بينما الواقع يقول أنها تمتص كل ذرة حياة من
قلوبكم.”

صمت الجميع لفترة وكان كلمات سالي ضربت على وتر حساس
حتى قطع نوح الصمت قائلا:

“ربما تكوني محقة بعض الشيء يا سالي. لقد كنت أدعي السعادة
والنجاح وأنا في الحقيقة لم أشعر بهما مطلقا. لقد جعلتني أفكر
في إحياء حلمي القديم بأن أجعل من آلة القانون أشهر آلة في
العالم. فهذه الآلة هي أغنى الآلات الموسيقية أنغاما وأطربها
صوتا، هي أم الآلات الموسيقية من وجهة نظري. لطالما حلمت
بأن أكون مثل يانّي عازف البيانو المشهور وأقود بألة القانون
فرقة موسيقية كاملة. ولكن هل تعتقدين حقا أنه يمكن أن أسعى
وراء هذا الحلم الآن بعد كل هذا الانقطاع والمسؤوليات وظروف
المعيشة الصعبة والتقلبات التي تحدث في مصر والعالم.”

أجابت سالي بثقة:

“ليس المهم أن أعتقد أنا. المهم أن تعتقد أنت يا نوح. ثم إنك قفزت بعقلك فوراً إلى مستقبل بعيد جداً وأنت لم تبدأ بالخطوة الأولى بعد وهي شراء آلة قانون والبدء بالعزف من جديد مسترجعاً متعة الماضي. فلتفعلها من أجل إسعاد نفسك الآن دون أن تفكر في مستقبل بعيد المنال أو إذا كان حلمك قابلاً للتحقيق أم لا ... استمتع بشغفك وعش اللحظة لا غير ... في منزلك ... مع نفسك ... وأنت ماتزال مدير بنك مرموق، على الأقل سيكون في حياتك ما يلونها ولو على سبيل المتعة والتسلية.”

ابتسم نوح وكأنه كان ينتظر هذه الكلمات ليجد مبرراً للعودة لآلة القانون دون خسائر في حياته، ثم أسند ظهره إلى الكنبه وفرد ذراعيه وأخذ يتنفس الصعداء قائلاً:

“حسناً، ما المانع أن أجرب وأن أمارس شيئاً أحبه إلي جانب حياتي المزدهمة بأشياء لا تعجبني سواءً اخترتها أو فُرضت عليّ.”

نظر إليه محمود وقال:

“كأنني أرى أمامي نوحا الذي أعرفه أيام الصبا.”

ثم أتبع متردداً:

“لا أريد أن أفسد عليك لحظتك ولكني أذكر أن جدك قال في رسالته (ابحث عن شغفك يا نوح وعندما تجده ... كلمة السر: نقطة البداية). ويبدو لي أنك قد وجدت شغفك، فما هو المقصود بنقطة البداية؟”

اعتدل نوح في جلسته ونظر إلى محمود في حيرة قائلاً:

“يا إلهي ... لم أننا بعد بهذا الشعور الذي افتقدته من سنين.
ولكن معك حق، ماذا يقصد جدي بنقطة البداية؟”

ثم صمت برهه وقال بتردد:

“أأ... دعونا قبل اتخاذ قرار نهائي، نقلب في الصور مرة أخرى
ونفكر ملياً، علنا نكون مخطئين أو....”

بتر عبارته مع نظرة سالي المستكبرة فهز كتفه في استسلام ثم
أخذوا ينظرون إلى بعضهم البعض وقد أدركوا أنهم بصدد لغز
آخر بحاجة إلى تفسير ... لغز نقطة البداية!

أغلق نوح باب شقة جده في حين قال محمود وهما
يتجهان نحو غرفة المكتب:

“إن شاء الله سنجد ما يفسر كلمة السر الجديدة هنا.”

أجابه نوح وهو متعجب:

“في الحقيقة أنا لا أرى في رسالة جدي أي إشارة للعودة إلى
غرفة مكتبه. فلقد قال (كلمة السر: نقطة البداية)”

ابتسم محمود وأجاب وكأنه يقول ذلك للمرة الألف:

“يا صديقي حاول أن تفهم ما أقصد ... نقطة البداية إما أن تكون نقطة البداية لعزفك لآلة القانون أو نقطة البداية حيث اكتشفت سر الرقم سبعة. فإن كان يقصد الأولى فعلينا الذهاب إلى المدرسة التي تعلمت فيها العزف للمرة الأولى. ولكن الذهاب إلى هناك والبحث عن دليل فيها أمر معقد جدا ولذلك نصحتك أن تأتي إلى هنا أولا ونبحث مرة أخرى عل جدك قد عنى شيئا موجودا في المكتب عندما قال نقطة البداية.”

قال نوح وبلهجة تحوي الكثير من عدم الاقتناع بتحليل محمود:

“حسنا سأمشي وراء استنتاجك حتى النهاية. أين سنبحث الآن وعن ماذا؟”

أجاب محمود بلا تردد:

“في المكتبة طبعاً.”

قالها واتجه مسرعا يتبعه نوح بخطوات بطيئة نحو مكتبة جده الضخمة وأخذا يبحثان في الأرفف الممتلئة بالكتب عن أي شيء يمكن أن يفيد.

وبعد مرور أكثر من نصف ساعة قال نوح بضيق:

“محمود لن نجد شيئا هنا ألم أقل لك أن استنتاجك هذا مستبعد جدا. دعنا نفكر ثانية فأنا لا أعتقد أن نقطة البداية هي المدرسة.

لأنه من غير المنطقي أن جدي كان متأكدا بنسبة مائة بالمائة أن شغفي سيكون آلة القانون. لا بد أن نقطة البداية تعني شيئا آخر غير ذلك.”

استمر محمود في البحث وكأنه لم يسمع نوح فتركه نوح وجلس يراقبه على الكرسي أمام مكتب جده وأسند ذراعه على سطح المكتب في انتظار أن يبأس محمود ويفتتح أن استنتجه كان خاطئا.

وبينما هو كذلك لمحت عيناه كتابا أبيض اللون موجودا على الرف السفلي للمكتبة مرسوم عليه آله قانون. كان الكتاب موضوعا بحيث يكون غلافه ظاهرا.

اندفع نوح نحو المكتبة قائلا بلهفة:

“محمود يبدو أنه معك حق بما قلته، انظر للأسفل هنا.”

تناول نوح الكتاب وقال:

“هذا هو الكتاب الوحيد الذي وضع في المكتبة بحيث يكون غلافه ظاهرا، وهو كتاب عن القانون.”

“يا إلهي كيف لم ألمحه.”

“لقد كان في الأسفل بينما كنت أنت مشغلا في البحث بدقة في الأعلى، ولكن يا ترى ماذا يوجد في هذا الكتاب.”

قالها وأخذ يتصفح صفحات الكتاب وبينما هو يفعل قال:

“ولكن كيف لجدي أن يتنبأ أنني سأهتدي وأختار آلة القانون عندما أبحث عن شغفي.”

“لا عجب في ذلك يا صديقي. لقد أحبك جدك كثيرا وبالتأكيد فهو كان يعلم عشقك لهذه الآلة. فالحالة التي يكون عليها الإنسان وهو يمارس ما يحبه لا تخفى على أحد.”

وما أن أنهى محمود عبارته حتى شاهد نوح وهو يخرج رسالة مطوية بين صفحات الكتاب وناول محمود الكتاب ليحمله حتى يتسنى له أن يفتح الرسالة ويقرأ ما فيها وعندما انتهى نظر إلى محمود قائلاً بمزيج من الحيرة والارتياح:

“الحمد لله لا يوجد كلمة سر في هذه الرسالة ولكن هل معنى هذا أنها نهاية الرحلة؟ هل قصد جدي بعد كل هذا البحث أن أكتشف شغفي وحسب؟”

وضع محمود الكتاب على رف المكتبة مرة أخرى ومد يده لنوح قائلاً:

“فلتعطني الرسالة دعني أقرأ ما جاء فيها.”

بدأ محمود بقراءة الرسالة والتي جاء فيها...

يا بني اسعى بكل جوارحك لكي تُحيي حياتك بشغفك

بداية السعي هي أول كلمة خاطب بها الله الإنسانية

اقرأ

تعلم، تمتع وارتقي بشغفك لأبعد الحدود

العلم سينير لك الطريق وسيدلك على أبواب لم تكن تتخيلها

يا نوح اقرأ كتابك

كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا

“أمر محير فعلا”

قالها محمود وهو ينظر إلى نوح بحيرة ثم استطرد قائلا:

“ولكن هناك أمر مباشر من جدك لك في هذه الرسالة. فهو قال بوضوح (يا نوح اقرأ كتابك) فلعله يقصد هذا الكتاب الذي وجدنا الرسالة بداخله.”

صمت نوح لوهلة وأخذ يفكر ثم قال:

“كل شيء ممكن. بعد الذي وجدناه الآن فلن أتفه من أي احتمال. دعنا نأخذ الكتاب وننطلق وسأبدأ بقراءته هذه الليلة ولنرى ماذا سيحدث بعد ذلك.”

“صحيح يا صديقي. فلنتوكل على الله”

خرج الاثنان من المنزل واتجها إلى السيارة. أوصل نوح محمود ثم توجه مسرعاً للمنزل ليجد مريم وابنته لارا نائمتان، فدخل الغرفة وطبع قبلة حانية على وجه لارا ونظر إلى مريم ولم يُرد أن يحدث أي صوت يوقظها كي يتسنى له التفرغ لقراءة الكتاب بهدوء، فاتجه مباشرة إلى الشرفة وأثار إضاءتها الخافتة وجلس على كرسيه المفضل المريح وفتح الكتاب...وبدأ يقرأ ...

(٣)

نزل نوح من سيارته أمام محل التخت الشرقي في وسط
البلد وأغلق باب سيارته وهو يحاول الاتصال بمحمود للمرة
الرابعة ولكن هاتفه كان خارج نطاق الخدمة فقال بحنق:

"أين أنت يا محمود؟ هذا ليس الوقت المناسب لتغلق هاتفك."

قالها واتجه مباشرة إلى داخل المحل ذو الواجهة العتيقة ملقياً
نظرة سريعة على المكان من الداخل وعلى الآلات الموسيقية
المعروضة والتي بدا من الواضح أنها تلقى عناية فائقة لتبدو بهذا
الشكل الجذاب بالرغم من قدم المكان الواضح وديكوراته العريقة
التي تعود لعقود مما ملأ نوح بشعور بالأصالة ممزوج براحة
غريبة فقال لنفسه:

"يا له من مكان عريق، يبدو أنه من الأماكن التراثية لبيع للآلات
الموسيقية."

تحرك رجل في أواخر الستينيات من عمره من خلف مكتب
الاستقبال باتجاه نوح وقال مرحباً:

"أهلاً يا أستاذ، هل تبحث عن شيء معين؟ أنا في خدمتك؟ نحن
بلا فخر أقدم محل لبيع الآلات الموسيقية الشرقية في مصر.
ستجد عندنا أجود أنواع الآلات. معك سعيد الهادي أبو التخت

الشرقي، فكل أصحاب محلات الموسيقى المجاورة أبنائي وأنا صديق شخصي لأشهر عازفي الآلات الشرقية في مصر والوطن العربي وبعض دول العالم أيضاً.”

نظر إليه نوح مبتسماً ثم قال:

“تشرفنا يا أستاذ سعيد، واضح جداً أنه مكان أصيل.”

ابتسم الأستاذ سعيد وقال بود:

“يمكنك مناداتي بعم سعيد كما يفعل الجميع.”

صمت قليلاً ثم قال متردداً:

“في الحقيقة يا أستاذ سعيد أنا لم آتٍ لشراء آلة موسيقية. أنا هنا لأمر شخصي.”

تفحصه عم سعيد بنظرة طويلة ثم قال بهدوء رزين:

“خير يا بني.”

“إحم... هل تعرف رجلاً يدعى ياسين الألفي؟”

تهللت أسارير عم سعيد عندما سمع الاسم وقال:

“هذا الرجل حبيبي فلقد كان دائم الحضور لصالون الموسيقى الشرقية الذي كنت أقيمه في منزلي في منطقة الحسين. هل تعرفه؟ كيف حاله الآن؟”

نظر نوح إلى الأرض وعلى وجهه علامات الحزن ثم قال:

“أدعو له بالرحمة”

ظهر التأثير الشديد على وجه الرجل وقال بلهجة غلب عليها الحزن:

“لا حول ولا قوة إلا بالله. لقد كان من خيرة الناس، رحمه الله وغفر له. ولكن من أين تعرفه يا بني، هل أنت قريبه؟”

“أنا حفيده نوح. ولقد جئتك اليوم لأن جدي طلب مني من خلال رسالة تركها لي بخط يده في آخر صفحة في كتاب عن آلة القانون كان يحتفظ به في مكتبته، أن أزور بيت التخت الشرقي على هذا العنوان. وما أنا ذا أتى إليك، فهل ترك لك جدي أي شيء يخصني؟”

أخذ الرجل يفكر قليلا ثم قال:

“نوح ... نعم نوح ... لقد تذكرت. لقد أتى إليّ جدك قبل عشرة أشهر وترك لي صندوقا صغيرا لأسلمه لحفيده نوح عندما يأتي إلى هنا وأوصى ولدي سالم أن يفعل نفس الشيء في حال أتاني الأجل قبل أن تأتي. ولكن جدك اشترط ألا أسلمك الصندوق حتى تقوم بعمل معين.”

نظر نوح إليه في حيرة قائلاً:

“بشروط أن أقوم بعمل معين؟! ما هو.”

“استرح هنا قليلاً. سأتيك حالاً.”

جلس نوح على كرسي خشبي عتيق أمام مكتب الاستقبال بينما دخل الرجل إلى غرفة صغيرة وغاب لفترة. وأخذ نوح ينظر إلى مجموعة الآلات الموسيقية المعروضة بعناية وتنسيق مذهش يشعر كبعيق التاريخ وروعة الفن الشرقي الأصيل يحيطها صور لأشهر العازفين والمغنيين أمثال أم كلثوم وعبد الوهاب وعبد الحليم وغيرهم.

أخذ نوح يدور بعينيه من آلة لأخرى حتى وقع نظره على آلة القانون فقام متجهاً إليها وأخذ يلمسها بأنامل يديه وكأنه يداعب طفلة الأثيرة لكنه في الواقع كان يداعب حلمه وجزءاً دفيناً من قلبه.

“كم أفتقدك يا عزيزي.”

“اشتقت إليه أليس كذلك؟.”

انزعت العبارة نوح من الحالة التي غرق بها والتفت إليه وتعبيرات وجهه توحى بأنه كان في عالم آخر فصمت برهه قبل أن يقول مبتسماً:

“لقد كانت هذه الآلة عشقي منذ الصغر.”

“حسنا...خذ هذا القانون وأعزف لي مقطوعتك المفضلة.”

قالها الأستاذ سعيد وهو يمد يده ليناول نوح آلة قانون رائعة الجمال ذات لون أبيض مميز يبدو أنها مصنوعة حسب طلب ومواصفات خاصة وقد بدا هذا واضحا من الزخرفة التي زينت جوانبها فضلا عن اللون الغير معتاد لمثل هذه الآلة .

تردد نوح قليلا قبل أن يمسك بها قائلا في عدم تصديق:

“لا يمكن! لقد توقفت عن العزف منذ أكثر من اثني عشرة عاما.”

أمسك الرجل بنوح من ذراعه وأجلسه على الكرسي الخشبي أمام مكتب الاستقبال وقال:

“تعال اجلس هنا واعزف يا نوح ... أطربنى.”

جلس نوح وهو لا يصدق ما يحدث وقد اختلطت مشاعره بين سعادة وحنين لحلم غاب عنه لسنين وبين خوف من أن تعجز أصابعه عن رسم الألحان على أوتار القانون .

أخذ يلمس نوح آلة القانون وكأنه يداعبها ثم لبس في إصبعي السبابة الريشة الخاصة بالعزف على الأوتار وبدأ يصدر بعض الأصوات والنغمات وكأنه يستعد ذكرياته مع محبوبته. ثم توقف قليلا وأخذ يعزف مقطوعة شرقية وبعد بضع ثوان توقف قائلا بحزن شديد:

“لا أستطيع ... فلقد نسيت كل شيء للأسف.”

ربت الرجل على كتفه ثم حمل آلة القانون وأخذها إلى الغرفة الصغيرة التي أتى به منها في حين جلس نوح موجهًا نظره إلى الأرض في أسف شديد.

“لا عليك يا بني. اذهب لتعلم الآلة والتدرب عليها من جديد ولن يأخذ منك الأمر طويلا حتى تنشط ذاكرتك وتعود إلى مستواك السابق. لقد علمت من جدك أنك كنت بارعا بحق.”

قالها الأستاذ سعيد وهو يمسك بكتف نوح مشجعا ثم أكمل قائلا:

“هذا القانون الذي حاولت العزف عليه مصنوع خصيصا لك ومحفور عليه اسمك ويبدو أنك لم تلاحظ ذلك.”

نظر إليه نوح مندهشا بينما أكمل الرجل قائلا:

“لقد طلب مني جدك في ذلك اليوم أن أقوم بتصنيع أروع آلة قانون بلون غير معتاد وأن أحفر عليها اسمك وأن أسلمك إياها مع صندوق صغير ولكن بشرط أن تعزف لي مقطوعة تطرب أذني وتريني براعتك في العزف على الآلة. يبدو أن جدك وضع هذا الشرط لأنه أرادك أن تعيد أمجادك وذكرياتك معها مرة أخرى.”

قالها ثم ناول الرجل نوح كارتا، أخذه نوح قائلا باستغراب:

“ما هذا؟”

“هذا كارت للأستاذ إبراهيم نعمان من أشهر عازفي ومدرسي آلة القانون في مصر حالياً، وصاحب بيت الشرق لتعليم الموسيقى. اذهب إليه وابدأ التدريب والممارسة وعندما تستعيد مهارتك قم بزيارتي مرة أخرى لتأخذ آلة القانون التي صنعتها من أجلك والصندوق الذي تركه لك جدك.”

نظر نوح إلى الكارت ودقات قلبه المتسارعة تعكس خليطاً من المشاعر ما بين عدم تصديق وسعادة لا يجد لها مبرراً وبين خوف من المستقبل وما ستؤول إليه الأمور. فيبدو أنه سيعود إلى العزف على الآلة التي طالما عشقها وحلم بها ولكن ماذا سيحدث بعد ذلك ... يا ترى ماذا يريد له جده... وما الذي تحمله له الأيام القادمة؟

“نوح توقف عن العزف لو سمحت، لا أريد لارا أن تستيقظ فبالكاد نجحت في جعلها تنام.”

قالتها مريم بحدة في حين نظر إليها نوح مستنكراً أسلوبها في الكلام وقال بغضب:

“ما بك؟ في كل مرة أجلس فيها لأعزف القانون تستشيطين غضبا هكذا!”

“أنا محتارة في أمرك، ستة شهور كاملة قد مرت وأنت على هذا الحال. تستيقظ بعد الفجر لتصلي ثم تعزف لمدة ساعة تقريبا قبل أن تذهب لعملك، وبعد العمل تذهب لتتدرب لتعود حوالي التاسعة

مساء ثم تنعزل لتعزف حتى بعد منتصف الليل. هذه ليست حياة!
إن لي ولابتك المسكينة عليك حق.”

أحس نوح ببعض الحرج وقال لها بلهجة حانية:

“معك حق يا مريم. ولكني أتمنى أن تتحمليني وتقفي بجانبني في هذه الفترة المهمة في حياتي. فأنا أريد أن أستعيد مستواي في العزف لأذهب إلى الرجل الذي قلت لك عنه وأحصل على آلة القانون الخاصة بي والصندوق الذي تركه لي جدي. إن لم أنجح في أن أطربه بحق فلن يعطني الصندوق. أنا أريد أن أكمل مشوار اكتشاف رسائل جدي. أنا بحاجة إلى دعمك حتى أصل لهدفي.”

أشاحت مريم بوجهها وقالت باستنكار وسخرية:

“أدعمك في أن تضيّع مستقبلك المهني لتكون (مزيكاتي). أي فخر في هذا! عجباً لك.”

نظر إليها نوح بغضب شديد وقال:

“منذ ستة أشهر كانت حياتي بلا معنى ولم أشعر فيها بطعم السعادة الحقيقية. هذه الآلة التي تسخرين منها هي التي جعلتني كما قال جدي أجد جنة الله في دنياه. لم أكن يوماً أسعد مما أنا عليه الآن ولم أجد للدنيا طعماً من قبل. هل تعلمين أن أدائي في عملي هو أعلى من أي وقت مضى، ذلك لأن روحي وقلبي في سعادة غامرة. أنا أعلم أنني مقصر في حقك وفي حق ابنتنا لارا ولكنها مرحلة مؤقتة وسيعود كل شيء على ما يرام.”

نظرت إليه مريم بضيق فأكمل قائلاً:

" سأقابل محمود بعد قليل عند محل الأستاذ سعيد لأعزف له مقطوعي المفضلة وأنا واثق أنه سيعطيني أمانة جدي هذه المرة."

هزت رأسها باستخفاف ثم استدارت متجهة إلى غرفة النوم وهي تتمتم:

"لا فائدة من الحديث معك. افعل ما تشاء."

نظر إليها نوح بأسف ثم نهض هو الآخر متجهاً إلى باب المنزل ونزل حتى وصل إلى السيارة ثم وضع آلة القانون التي اشتراها ليتدرب عليها على المقعد الخلفي قبل أن يقوم بالاتصال بمحمود الذي أجابه قائلاً:

"نوح كيف حالك يا صديقي. سأنتهي من العمل بعد ربع ساعة إن شاء الله وسأقابلك في موعدنا عند بيت التخت الشرقي."

تنهد نوح قائلاً:

"أنا متجه إلى المحل الآن. لم أستطيع الانتظار فمريم قد بدأت في تعكير صفو الحالة الرائعة التي أعيشها منذ ستة أشهر. لا أدري لماذا لا تريد أن تقف بجانبني وتصر على الاستخفاف بالموضوع."

“لا عليك يا صديقي هي بالتأكيد قلقة ومستغربة من وضعك الحالي ثم إن معها حق فأنت منهمك تماما في التدريب ولا تقضي أي وقت معهم منذ فترة طويلة. إن شاء الله ستهدأ الأمور هذه الليلة بعد أن تعزف مقطوعتك الرائعة لعم سعيد وتأخذ متعلقاتك من عنده. هل أنت مستعد؟”

لمعت عينا نوح وكأنه نسي ما كان يعكر مزاجه وقال:

“أنا في أتم الاستعداد. سأعزف على حبيبتي كما لم أعزف من قبل.”

لم يمر وقت طويل حتى كان عم سعيد ومحمود يجلسان وأمامهما نوح يعزف على آلة القانون البيضاء الرائعة التي تركها له جده وكأنه خارج هذا العالم تماما. كل نغمة تصدو بشغف ليس له حدود، كل وتر يحمل مشاعر وذكريات، كل حركة إصبع تحرك أحلاما كادت أن تموت.

لم يكن نوح يعزف مجرد لحن تدرب عليه بل كان يعيش بكل كيانه لحظات من الماضي والمستقبل، كان يرسم أنغاما تُرى بالعين وتسمع بالأذن وتستقر في القلب.

لقد كان الأمر مبهرًا بحق حتى أنه ما إن أنهى نوح العزف حتى سمع تصفيقا حارا من محمود وعم سعيد فنظر إليهما مبتسما ليجد عيني الأخير مبلة بالدمع من تأثره بعزف نوح وحالة النشوة العجيبة التي كان عليها.

قال عم سعيد بلهجة متأثرة:

“رحمك الله يا دكتور ياسين. لقد أخرجت إلى العالم ما سيكون أسطورة في عزف آلة القانون. لم أستمتع بعزف رائع مثل هذا منذ فترة طويلة. أنت تستحق بجدارة هذا القانون يا بني. لا بد أن تكمل التدريب والعزف فلقد خلقت لهذا وأعطاك الله الموهبة الفذة التي ستجعل لك شأنًا عظيمًا بإذن الله.”

نهض نوح وضم الرجل إليه قائلاً:

“شكراً لك يا عم سعيد. فأنت أرشدتني إلى أستاذ إبراهيم ومعك حق بهذا فهو أستاذ بارع وعازف قانون متميز. فلولاه ما استطعت أن أصل لهذا المستوى في تلك الفترة القصيرة.”

ابتسم عم سعيد قائلاً:

“لقد حان الوقت لأسلمك الصندوق الذي تركه لك جدك، انتظرنى قليلاً.”

تركهما واتجه إلى الغرفة الصغيرة داخل المحل بينما فتح محمود ذراعيه ليضم نوح قائلاً:

“كم أنا فخور بك يا صديقي. لقد ألهمني أداؤك والحالة الاستثنائية التي كنت عليها وأنت تعزف بأن أسعى أنا الآخر لاكتشاف شغفي. ليبتني قمت بتصويرك كي ترى كيف كان حالك أثناء العزف، شيء لا يصدق فعلاً.”

“شكرا يا صديقي على دعمك لي. فلولا وقوفك بجانبني أنت
وسالي ما استطعت أن أستمر وأن أتحمل ساعات التدريب
الطويلة والشاقة في هذه الفترة.”

“تفضل يا بني. هذا هو الصندوق الذي تركه لك جدك.”

تناول نوح صندوقا مسبعا صغيرا من العم سعيد فلمعت عيناه
ونظر إلى محمود الذي قال مبتسما:

“صندوق مسبع آخر ومرحلة جديدة في رحلة شغفك يا صديقي
العزیز، استعد.”

ضحكت سالي بشدة وهي تجلس مع محمود في غرفة
المعيشة يشاهدان فيلما كوميديا قديما لإسماعيل ياسين وهما
يأكلان (الفيشار) بينما ابتسم محمود ابتسامة خفيفة محاولا
مجاراة زوجته. وما أن توقف الفيلم للاستراحة الإعلانية حتى
التفتت سالي باتجاه محمود لتجده شاردا يفكر فأغلقت التلفاز
وقالت:

“ما بك يا محمود، هل الأمر يتعلق بنوح؟”

نظر إليها محمود بحزن قائلا:

“نوح في حالة سيئة منذ ما يقارب الأسبوع، منذ اليوم الذي قرأ فيه رسالة جده الأخيرة عندما كنا فيه في محل الآلات الموسيقية.”

قالت سالي بقلق:

“ماذا حدث ليصبح بحالة سيئة؟ لقد كان يعيش الأشهر الماضية بسعادة وتناول كبيرين.”

“الرسالة التي تركها جده عادية جدا ... ليست كباقي الرسائل. لا تحتوي على كلمة سر ومضمونها ليس به ما يدعو لفعل أي شيء مختلف عما فعله نوح في الأشهر الستة الماضية. ولذلك فهو في حيرة من أمره لا يدري ما يجب أن يفعل.”

أجابت سالي بثقة:

“وبالطبع فقد توقف عن عزف آلة القانون.”

نظر إليها محمود بدهشة قائلاً:

“وكيف عرفت ذلك؟”

“عجبا لأمر الإنسان، يفسد سعادته بيده بمجرد حدوث أمر صغير على عكس توقعاته.”

أجاب محمود في حيرة:

“ماذا تقصدين؟”

“رسائل جد نوح كانت السبب في تغيير حياته للأفضل وجعلته يذوق لأول مرة طعم السعادة الحقيقية التي فقدتها منذ سنوات. ولكن عندما حدث ما خالف توقعاته في الرسالة الأخيرة ترك كل شيء وعاد إلى قبره القديم الذي كان يدفن فيه أحلامه.”

هز محمود رأسه مؤيدا ثم قال:

“ولكنه كان يتوقع أن هناك المزيد وأن الرسائل لن تتوقف فقط عند تشجيعه على اكتشاف شغفه والبدء بالعزف، فهو الآن لا يعرف ما عليه القيام به. كمثّل من عزم على السفر لبلد ما لكنه توقف في منتصف الطريق ليجد نفسه تأثها لا يدري إلى أين عليه الذهاب.”

قالت سالي بضيق:

“اللجنة على رغبة الإنسان الدائمة في أن يصل إلى خط النهاية. لما لا نحيا ببساطة ونركز على الاستمتاع بالرحلة بدل أن نشغل بالنا بما سيكون، لما لا نكون مرنين ومنفتحين للفرص التي سيضعها الله أمامنا جزاء سعينا وعملنا. إن رغبة الإنسان في أن يرى المستقبل بأدق تفاصيله هي سبب تعاسته.”

ابتسم محمود ووضع يده على خد سالي مداعبا إياها قائلا:

“أنت رائعة يا سالي. إن فلسفتك في الحياة تدعو فعلا للتفاؤل والتعامل مع الحياة بليين ورفق.”

تهللت أسارير سالي قائلة:

“يا لا العجب!. أول مرة تتني على ما أقول. ما بك يا رجل؟”

ضحك محمود ثم قال:

“بصراحة منذ اليوم الذي رأيت فيه نوح يعزف على القانون في محل الآلات الموسيقية، أدركت مدى النشوة والمتعة التي يكون عليها المرء وهو يفعل ما يعشق. وبدأت أفكر أنا الآخر في البحث عن شغفي.”

قفزت سالي من مكانها وأخذت ترقص وهي تردد:

“زوجي قرر أن يحيا سعيدا يا ناس... أخيرا يا ناس.”

ضحك محمود ثم شرد بذهنه مرة أخرى وكأنه تذكر أمرا هاما فقاطعه سالي قائلة:

“أرجوك لا تشرد مرة أخرى. لم أصدق أنك بدأت تفكر في حياتك بشكل إيجابي.”

“برأيك ما الذي يمكن أن نفعله فيما يخص نوح؟”

توقفت سالي وكأنها تذكرت هذا الأمر فأخذت تتتمم ثم قالت:

“هل تذكر ما جاء في رسالة جده؟”

“لا أذكر كل ما جاء فيها ولكني أخذت صورة لها على هاتفي
ووعدت نوح أن أفكر وأحلل الرسالة علي أجد ما يفيد. دعيني
أريكي إياها.”

قالها وأخرج محمود الهاتف من جيبه وفتح الرسالة من ألبوم
الصور وأعطاهها إلى سالي.

أخذت سالي تقرأ بصوت عالٍ الرسالة بجدية وتركيز شديدين:

يا بني ابحث عن الرفيق، فهو السند والشريك.

وابحث أيضا عن معلم ثم ابحث عن المعلم.

فمعه سترتقي لأفاق ليس لها حدود

وسيتبث قلبك على الدرب ويفتح لك كل الأبواب المغلقة

المعلم يا نوح.

“الرسالة واضحة جدا، لا أدري ما داعي الحيرة. فهي دعوة
لنوح ليبحث عن معلم. فلتنصح صديقك أن يبحث على معلم جيد
لآلة القانون ويتلمذ على يديه.”

“لقد فعل نوح هذا بالفعل. فتفسيرنا للرسالة كان أنني أنا الرفيق المقصود وأن المعلم هو أستاذ إبراهيم الذي درب نوح على مدار السنة أشهر الماضية. فهو واحد من أبرز عازفي آلة القانون في مصر إن لم يكن في الوطن العربي أيضا. ما الجديد الآن؟”

صمتت سالي ثم أخذت تنتظر مرة أخرى للرسالة ثم توقفت وحدثت بعينها بتركيز شديد قائلة:

“اتصل بنوح واطلب منه أن يأتي فوراً فلقد وجدت الحل.”

نظر إليها محمود غير مصدق فأتبعته قائلة:

“لا تنتظر لي هكذا، هيا كلم صديقك. فأنا متأكدة من استنتاجي وأظن أنني عرفت سر الخطوة القادمة.”

لم يجد محمود الفرصة ليجادل أو يستفسر فلقد وضعت سالي الهاتف في يده بعد أن اتصلت بنوح وأخذت تنتظر لمحمود بتفاخر ثم اعتدلت وأمسكت بطبق (الفيشار) وفتحت التلفاز كي تتابع ما تبقا من الفيلم الكوميدي المفضل لديها.

(٤)

“ها أنا ذا قد وصلت. إن كانت سالي محقة في استنتاجها فهذا يعني أنها عبقرية فعلا، بغض النظر عن الصعوبة والإحراج الشديدين في الأمر الذي طلبت مني القيام به.”

“إن شاء الله سيكون استنتاجها صحيحا يا صديقي فهو أمر منطقي جدا وواضح في رسالة جدك ولكننا لم ننتبه إليه.”

“يا مسهل، سأتصل بك فور انتهائي من اللقاء.”

قالها نوح منهيا اتصاله بمحمود ثم دخل (بيت الشرق) المكان الذي كان يتدرب فيه على عزف القانون طوال الستة أشهر الماضية ومنه إلى غرفة معلمه الأستاذ إبراهيم الذي ابتسم فور رؤيته قائلاً:

“إين كنت يا نوح. لقد انتظرتك طويلا.”

لم ينتبه نوح لمغزى الكلمة فأجاب قائلاً:

“عذرا أستاذ إبراهيم. الأسبوع الماضي كان عصيبا للغاية. فلقد
...أأ... أأ...”

“اجلس يا نوح وأخبرني ما حدث. اعتبرني كوالدك وقص عليّ ما يقلقك، فأنا أريد أن أساعدك كي تكمل مسيرتك فأنت ستكون ذو شأن عظيم.”

جلس نوح على الكرسي المقابل لمكتب أستاذ إبراهيم وأخذ يروي له قصة جده والرسائل التي تركها حتى انتهى قائلا:

“ولكن الرسالة الثالثة محيرة جدا. فلقد أمضيت الأسبوع الماضي في إحباط شديد لا أدري ما عليّ أن أفعل، فلم ألحظ فيها أي شيء يدل على الخطوة القادمة حتى نبهتني زوجة صديقي محمود لمقطع مهم في الرسالة لم أقف عنده كثيرا.”

نظر إليه أستاذ إبراهيم مبتسما ابتسامه خفية وقال:

“وما هو هذا المقطع يا بني.”

تردد نوح كثيرا قبل أن يجيب قائلا:

“في الحقيقة يا أستاذ إبراهيم أنا أدين لك بفضل كبير في مساعدتي على استعادة مستواي في فترة وجيزة فأنت معلم قدير ويشهد الجميع بمكانتك الكبيرة في عالم العزف على آلة القانون. أعلم أن ما سأقوله الآن قد يبدو سخيفا جدا وينافي أدب التلميذ مع أستاذه ولكن...”

قاطعه أستاذ إبراهيم قائلا:

“تكلم يا نوح فأنا أكن لك معزة خاصة، أرجوك لا داعي للخجل أو الإحراج.”

استجمع نوح شجاعته قبل أن يقول:

“هناك مقطع في الرسالة الأخيرة التي تركها لي جدي يقول فيه (ابحث عن معلم ثم ابحث عن المعلم) ثم ختم الرسالة بـ (المعلم يا نوح).”

اعتدل أستاذ إبراهيم وأسند ظهره على كرسيه ثم قال:

“أكمل يا نوح.”

أكمل نوح في حرج:

“أ..أ..أ... ما أشارت إليه سالي هو أنه لا بد لي أن أبحث عن ...
عن هو ... يا إلهي ... يصعب علي أن أقولها. ولكن ...

“أنت تبحث عن المعلم ... أنت جئتني اليوم كي أدلك على من هو أفضل مني لتتدرب على يديه، أليس كذلك.”

قالها أستاذ إبراهيم مبتسما في حين نظر إليه نوح مندهشا من سعة صدره وبساطة استقباله للأمر ثم قال:

“لم أقصد هذا تحديدا أستاذ إبراهيم فأنت بالتأكيد الأبرع في مصر بل في الوطن العربي كله ولكني أردت أن....”

قاطعته الأستاذ إبراهيم مرة أخرى قائلا:

“يا بني ... إن فوق كل ذي علم عليم. لكل مجال في هذه الدنيا أسرار لا يعطي الله مفاتيحها إلا لقلّة قليلة من خلقه. وستجد دائماً وأبداً من هو الأفضل في كل المجالات. لقد أراد لك جدك أن يكون لك شأنًا عظيمًا يا نوح ولن يحدث ذلك إلا إذا بحثت عن المعلم.”

“كم أنت عظيم يا أستاذ إبراهيم. فلقد توقعت أن تغضب عندما أفصح لك عن هذا الأمر.”

ضحك أستاذ إبراهيم ثم اقترب من نوح وقال بصوت منخفض غامزاً له بعينه:

“أريد أن أراك تعزف على آلة القانون البيضاء الرائعة التي تركها لك جدك.”

اندهش نوح من قوله فمن المفروض أنه لا يعلم شيئاً عن أمر الرسائل هذا. ارتبك نوح ولم يعرف ما يقول فأكمل أستاذ إبراهيم:

“لا تندهش، لقد كنت موجوداً مع عم سعيد وجدك في نفس اللقاء الذي ترك فيه جدك الأمانة مع عم سعيد. وأوصاني أن أتواصل معك عندما يبلغني عم سعيد باستلامك للصندوق. ولقد أوصيت ابنتي أن تفعل نفس الشيء في حالة وفاتي. ولذلك قلت لك عندما دخلت عليّ الآن أنني كنت أنتظرِكَ منذ وقت طويل ولكنك لم تنتبه لما قصدت.”

قال نوح في حيرة شديدة:

“عجبا لجدي. لقد رتب الأمور بصورة مذهلة.”

“قلت لك يا نوح أن جدك أراد لك شئنا عظيما ولذلك أوصى عم سعيد أن يدلك علي لتتدرب معي ثم أوصاني أن أدلك على المعلم بعد أن تستلم الرسالة من عم سعيد. كنت أراهن عم سعيد أنك ستأتي إليّ وكنت على حق ولكن لو كنت تأخرت أكثر من هذا كنت سأبادر بالاتصال بك.”

قال نوح في لهفة:

“هل قلت أن جدي قد أوصاك أن تدلني على المعلم. هل معنى ذلك أنك تعرف من هو المعلم الذي يقصده جدي؟”

“جدك لم يقصد معلما بعينه، ولكنه طلب مني أن أرشدك إلى المعلم الذي سينقل مستواك إلى آفاق جديدة على حسب ما أرى من أداءك. وفي الحقيقة أداؤك وشغفك وأسلوبك لا يترك لي إلا رجلا واحدا لأرشدك إليه. هو الوحيد الذي يمكنه أن يطير بك إلى عنان السماء.”

“من هو يا أستاذ إبراهيم. من هو ذاك المعلم.”

نظر أستاذ إبراهيم إلى السقف وقال متنهدا:

“إنه الأسطورة التركي باران شيروان.”

قال نوح باستغراب:

“من؟ التركي باران شيروان. أنا لم أسمع به قط.”

“إنه أفضل عازف على آلة القانون في العالم إن لم يكن في التاريخ. لم يذع صيته كثيرا فما أن بدأت شهرته تجوب العالم منذ خمسة عشر عاما حتى تعرض لحادث سيارة أليم أجلسه على كرسي متحرك مصابا بشلل نصفي. انعزل بعدها ثم اختفى ولا يعرف له أحد طريقا. سمعت أخبارا أنه ما زال على قيد الحياة ولكني لا أعرف أين يكون. ابحث عنه وإن وجدته فاذهب إليه فوراً وتدرّب على يديه. باران سيجعل منك أسطورة فأسلوبك وابتكارك في العزف مشابه كثيرا لما كان يفعله مع الفارق طبعاً.”

صمت نوح وشرّد بذهنه طويلاً ثم نظر إلى أستاذ إبراهيم قائلاً بصوت واهن:

“وإن لم أجدّه؟”

مال أستاذ إبراهيم نحوه مجيباً بحزم:

“ستجده، العذر الوحيد الذي يمكن أن يمنعك هو أن يكون قد فارق الحياة. يجب أن تجده يا نوح. (المعلم يا نوح)... وعندما تتعلم منه وتعود سأكون في انتظارك.”

أخذ نوح يفكر في الأمر الذي يبدو أنه سيحدث نقلة فارقة في حياته. شعر نوح بمزيج من الترقب والحماس ممزوجاً بقلق بالغ،

فإن حدث أن وجد باران شيروان هذا فإن الأمر سيتطلب أن يسافر إلى تركيا ليتدرب على يديه. ترى ماذا عليه أن يفعل وقتها؟ هل سيتقبل مدراءه في البنك فكرة أن يأخذ إجازة دون مرتب؟ وإن قبلوا ماذا سيكون رد فعل مريم وكيف سيؤثر هذا على علاقتهما المتوترة أصلاً هذه الأيام؟

عشرات الأسئلة كانت تدور برأس نوح وهو يمشي خارجاً من بيت الشرق متجهاً إلى سيارته ... عشرات الأسئلة التي لم يجد لها إجابة ولم يملأ عقله وقلبه حينها إلا خوف كبير من المجهول...

جرت لارا نحو باب المنزل بمرح عندما سمعت صوت المفتاح ليدخل أباها في ساعة متأخرة بعد يوم طويل في العمل وعندما رآها فتح ذراعيه وضمها إليه قائلاً:

“حبيبة والدها ... كيف حال أميرتي الصغيرة.”

أجابت لارا بصوتها الطفولي البريء:

“الحمد لله يا أبي. اشتقت لك كثيراً.”

ابتسم نوح وهو يضمها إليه بحنان ثم أخذ بيدها واتجها نحو غرفة المعيشة حيث تجلس مريم أمام التلفاز غير مكرثة لقدمه.

“كيف حالك يا مريم.”

نظرت إليه ولم ترد فجلس نوح على ركبتيه وأمسك بوجه لارا برفق قائلاً:

“حبيبتى هل يمكنك أن تذهبي لتعربي بغرفتك الآن، فأنا أريد التحدث مع والدتك قليلاً وبعدها سأتي لألعب معك مطولاً حتى تتأمين.”

ضحكت لارا وجرت نحو غرفتها في حين نهض نوح ليجلس على الكرسي المجاور للأريكة التي تجلس عليها مريم ثم قال:

“هل يمكن أن تطفئي التلفاز قليلاً، هناك أمر هام أريد التحدث فيه معك؟”

نظرت إليه بعدم اكتراث ثم أمسكت بريموت التلفاز لتطفئه وتقول بلهجة استفزازية:

“لا داعي لأن تعد لارا بأنك ستلعب معها ثم لا تقي بوعدك. هذا أمر غير مناسب، هل تريد أن تكرهك ابنتك أو تفقد الأمل منك.”

مال نوح نحوها وقال وهو ينظر إلى الأرض:

“لقد استقلت من عملي في البنك اليوم.”

انتفضت مريم وكان صاعقة قد نزلت عليها وقالت بصوت عالٍ:

“اللجنة... ماذا تقول؟ أنت بالتأكيد مجنون. هل فقدت عقلك؟”

نظر إليها نوح بحزم قائلاً:

“إن لم تلتزمي بأدب الحوار مع زوجك سأتركك ولن أكمل ما أريد أن قوله.”

“ماذا تريد أن تقول بعد هذه الكارثة؟ كل ما أريد أن أعرفه هو هل استقلت بسبب مشكلة في العمل أم بسبب هذه اللعنة التي حلت علينا بسبب جدك المخبول.”

استشاط نوح غضبا وقال بحدة:

“مريم إن لم تمسكي لسانك وتحفظي أدبك سيكون لي تصرف آخر معك. لن أسمح لك أن تقولي ذلك على جدي مرة أخرى. ولكي تترتاحين ... نعم لقد تركت العمل كي أتفرغ للعزف على آلة القانون. وليس هذا فقط، بل لقد عزمت على السفر إلى تركيا لمدة لا أعلم مداها حتى الآن فأنا ذاهب للتعلم على يد أحد أبرز العازفين على مستوى العالم. أنا فقط أبلغك إن كنت تريدين اللحاق بي إن طالت المدة.”

وضعت مريم وجهها بين كفيها وقالت في عدم تصديق:

“أنا لا أصدق ... لا أصدق.”

ثم نظرت إلى نوح وقالت بتوسل:

“نوح أرجوك قل لي أنك تمزح معي. أنا لا أصدق أنك قررت أن تضحي بمستقبلك ومستقبلنا بهذه البساطة، ومن أجل ماذا من أجل أن تكون عازفا على آلة موسيقية.”

أجابها نوح بحنان عندما استشعر حالتها:

“مريم أرجوك حاولي أن تفهمي موقعي، لقد قدمت على طلب إجازة دون مرتب ولكنهم في البنك رفضوا فاضطرت لتقديم استقالتي، فكما قلت لك يجب أن أسافر لأتعلم من أعظم عازفي هذه الآلة..”

صمت برهه قبل أن يكمل:

“لقد شاءت الأقدار أن أخوض رحلة من شأنها أن تغير حياتي بشكل جذري للأفضل، فأنا لم أشعر بمعنى السعادة إلا بعد رسائل جدي وعودتي للعزف ولولا انزعاجك وتذمرك من ذلك لكانت سعادتي مكتملة الآن...”

قاطعته مريم وهي تعود لحديثها مرة أخرى:

“أي أفضل هذا الذي تتكلم عنه! لقد كنت تعيش على مدار الأشهر الماضية منعزلا تماما ولقد تحملت كل هذا على أمل أن يكون ما تمر به نشوة مؤقتة بسبب عودتك لأمر تحبه منذ الصبا وأنه سرعان ما سيفتر هذا الشعور وتعود إلى رشدك مرة أخرى. ولكن يبدو أنك عازم على أن تخرب بيتك ومستقبلنا بيدك من أجل شيء لا قيمة له.”

تمالك نوح أعصابه وكظم غضبه وهو يقول:

“يا مريم لقد قلت لك كثيرا أنني لم أشعر بطعم السعادة إلا مع بداية هذه الرحلة خلال الأشهر الماضية وأعترف بتقصيري تجاهك وتجاه لارا في هذه الفترة ولكن بالتأكيد ستستقر الأمور قريبا عندما أكشف أسرار رسائل جدي والتي أظن أنها قاربت على الانتهاء. أرجوك يا مريم أنا بحاجة لدعمك فأنت حب عمري كله. من سيقف بجانبني إن لم تفعلني أنت.”

أشاحت بيدها غاضبة وهي تقول بسخرية:

“كفى بصديقك الفذ وزوجته المصون عونا لك.”

“محمود وسالي لم يدخرا جهدا لمد يد العون لي طوال الفترة الماضية. فسالي لم تذق طعم النوم منذ أسبوع لتبحث لي عن أي معلومة تدل على مكان المعلم التركي الذي سأذهب إليه وكانت سعيدة أكثر مني عندما وجدت معلومة على موقع تويتر من أحد تلاميذ الرجل القدامى عندما قام بنشر صورة سيلفي أمام منزله معلقا فيها عن مدى سعادته بمقابلته بعد سنين طوال.”

قالت مريم باستغراب:

“يا إلهي، سيطير عقلي. هل استقلت من عمك وضحيت بمستقبلنا ساعيا وراء رجل خفي لا يعلم أحد أين يكون! نوح هل فقدت عقلك بحق. لن أتكلم عن سالي فهي أصلا مجنونة تعيش حياتها بعشوائية ولكن، أنت مدير فرع ناجح بأحد أكبر البنوك في مصر يفترض أنك تزن الأمور بحكمة فكيف لك أن تتساق

وراء هذه الأمور كالأعمى!!! بل كيف يساعدك رجل عاقل مثل محمود على الرغم من أنه لم يفعل الشيء نفسه ويهدم مستقبله ومستقبل أسرته بيده.

“يا مريم أنا لم أضحي بمستقبلنا. لا تكرري هذه الكلمة مرة أخرى. لقد أخذت هذا القرار بعد وزن كل الأمور بشكل سليم. فإن لدي مدخرات تكفي مصاريفنا لمدة عام ونصف على الأقل كما أن سمعتي في المجال جيدة جدا فإن حدث وأردت العودة للعمل مرة أخرى لن أجد صعوبة في إيجاد فرصة عمل جديدة ولو حتى في منصب ومرتب أقل مؤقتا. التضحية الحقيقية هي أن أفرط في حلمي وهذه الفرصة الاستثنائية التي يمكن أن تجعلنا نحيا بسعادة طوال حياتنا.”

قامت مريم من مكانها وقالت باستعلاء:

“تقصد (التي تجعلك تحيا) فأنا وابنتك خارج هذه اللعبة الصببانية تماما. اذهب حيث شئت يا نوح ولكن اعلم أنك إن عزمت على أمر السفر هذا فسوف تعود لتجد هذا البيت خاليا ليتسنى لك أن تحيا وحدك وتأخذ قراراتك دون أن تضع أي اعتبار لوجودنا في حياتك.”

“يا مريم أرجوك...”

قاطعته وهي تترك غرفة المعيشة متجهة إلى غرفة النوم:

“انتهى الحوار يا نوح. وأنصحك أن تذهب للعب مع ابنتك كما وعدتها وأن تنام بجوارها هذه الليلة فمن يعلم كم ستفتقدك بعد اليوم.”

اعتصرت هذه الكلمة قلب نوح الذي جلس وحيدا في غرفة المعيشة وهو يراجع قراره بعد بدأ يشعر ببداية انهيار حياته التي اعتاد عليها ... نعم لقد كانت حياته السابقة تفتقد طعم السعادة الحقيقية ولكنها كانت مستقرة وهادئة لسنين طوال.

وصل نوح في تمام الساعة العاشرة صباحا إلى مكتب استقبال فندق تيرمال بارك الذي يقع في قرية جوق شيدرا في منطقة تيرمال التابعة لمحافظة يلوا. وعندما رأى موظف الاستقبال قال باللغة الإنجليزية:

“صباح الخير. هناك حجز باسم نوح صالح من فضلك.”

ابتسم الرجل وقال مرحبا بلغة عربية سليمة:

“أهلا بك أستاذ نوح، أتمنى أن تكون قد قضيت رحلة ممتعة حتى وصلت إلى هنا. دعني أفحص تفاصيل الحجز الخاصة بك وحتى أفعل أرجو منك أن تملأ البيانات الموجودة في هذه الاستمارة.”

“رائع إنك تتحدث العربية بطلاقة.”

أجاب الرجل بلباقة قائلاً:

“نعم سيدي، أغلب موظفي الفندق يجيدون اللغة العربية.”

نظر إليه نوح بإعجاب وأخذ نوح الاستمارة وبعد أن انتهى من
ملأ البيانات أخذ يجول ببصره متفحصا المكان حتى قاطعه
موظف الاستقبال قائلاً:

“الفندق متواضع أليس كذلك سيدي؟”

“لا بالعكس لقد شعرت بالراحة منذ أن دخلت إلى هنا.”

“في الحقيقة هذا هو الفندق الوحيد في قرية جوق شيدرا ولكننا
نهتم اهتماما شديدا بأن يكون المكان نظيفا وجميلا وأن يكون
بسيطا في نفس الوقت ليتماشى مع طبيعة هذه القرية الهادئة التي
ستشعر فيها بحياة الريف التركي وتتعايش مع أطيب ناس
شاهدتهم في تركيا.”

ابتسم نوح قائلاً:

“كم أحتاج إلى البساطة والهدوء هذه الأيام. شكرا لك.”

“تفضل مفتاح غرفتك يا سيدي، غرفة ٢٥. إنها غرفة جميلة
تطل شرفتها على القرية. ستصعد الدرج من هنا وستجدها على
يمينك مباشرة في الطابق الثاني سيدي. يمكنك أن تترك الحقائب
الخاصة بك وسنوصلها إلى غرفتك حالا.”

“شكرا جزيلًا.”

قالها نوح واتجه نحو الدرج الذي أشار إليه موظف الاستقبال ثم توقف والتفت عائداً ليسأل:

“هل لي بسؤال من فضلك؟”

“بالطبع سيدي. كيف لي أن أخدمك؟”

مال نوح نحوه قائلاً:

“هل تعرف أين يسكن باران شيروان؟”

أخذ الرجل يفكر ثم هز رأسه نافية وقال:

“لا سيدي للأسف. من يكون هذا الرجل؟”

ظهر على وجه نوح الاحباط فلقد توقع أن يكون المعلم الذي يقصده معروفاً بين أهالي القرية فقال:

“لا عليك. إنه عازف آلة القانون، كان مشهوراً جداً منذ سنوات ولكنه اختفى واعتزل بعد أن تعرض لحادث أصابه بالشلل النصفي. لقد دلتني بعض الأصدقاء بأنه يسكن في هذه القرية.”

“عذراً سيدي لم أسمع عن هذا الرجل من قبل. ولكن يمكنك أن تسأل في السوق الشعبي التابع للقرية. فلا بد أن يعرفه أحد البائعين هناك.”

“حسنا شكرا جزيلًا. أراك على خير.”

حيّاه نوح واتجه إلى غرفته وفتح شبّاك الشرفة وأخذ يلقي نظرة على سحر وبساطة هذه القرية الجميلة وهو يقول في نفسه:

“ترى أين أنت أيها المعلم؟ وهل تسكن هنا حقًا أم أن هذه التغريدة التي وجدتها سالي خادعة؟”

قطع حبل أفكاره وتساؤلاته صوت طرق على باب غرفته فذهب ليفتح الباب ليجد حامل الحقائب مبتسما ابتساماً عريضة قائلاً بالعربية:

“حقائبك سيدي، هل أعجبتك الغرفة؟”

“نعم إنها غرفة نظيفة وبسيطة. نسيت أن أسأل، هل هناك خدمة انترنت هنا؟”

“بالطبع سيدي، إنها مجانية أيضاً. هل هناك شيئاً آخر أستطيع مساعدتك به؟”

تردد نوح قبل أن يسأل:

“لا أعرف إن كنت تستطيع إجابة هذا السؤال أم لا ولكن لا يوجد ما نخسره. هل تعرف أين يسكن باران شيروان؟”

فكر الرجل قليلاً ثم قال:

“أظن أنني سمعت هذا الاسم من قبل ولكني لا أذكر من يكون أو أين يسكن.”

نظر نوح إلى الأرض وظهر بعض الضيق على وجهه فاستطرد الرجل قائلاً:

“إذا كان يسكن في هذه القرية فهناك شخص واحد يمكن أن يعرف مكانه، فهي تعرف كل سكان هذه القرية تقريباً.”
لمعت عيني نوح وقال في لهفة:

“من تكون هذه السيدة.”

ابتسم الرجل وقال وكأنه يقدم أهم شخصية في تركيا:

“أسلي أرسلان. صانعة أفضل فطير طازج على الصاج يمكن أن تتذوقه في تركيا. إنها امرأة كبيرة في السن وتعرف معظم سكان هذه القرية.”

قال نوح والأمل ظاهر في نبراته:

“عظيم وأين أجد هذه السيدة.”

“فقط اسأل عنها أي أحد في السوق الشعبي القريب من هنا وسيدلك الجميع عليها.”

أخرج نوح بعض النقود من جيبه وأعطاها لحامل الحقائب قائلاً:

“أشكرك بشدة، فلقد جئت من مصر خصيصا لمقابلة هذا الرجل.”

“في خدمتك سيدي. أتمنى لك قضاء وقت ممتع هنا.”

أغلق نوح الباب وقال لنفسه وهو يفتح حقيبة ملابسه:

“حسنا فلتأخذ حماما دافئا يا نوح ليستعيد جسدك نشاطه وترمي همومك خلفك مؤقتا، ثم تلبس ملابس نظيفة وتذهب إلى ذلك السوق الشعبي. (نوح جايلك يا ست أسلي).”

قالها وتحرك نحو الحمام وهو يصفرّ لحنا مصريا شهيرا من أحد تلك الألحان الملازمة دائما للحمام الدافئ..

“صباح الخير سيده أسلي.”

قالها نوح بلهجة تركية ركيكة تعلمها من موقع جوجل للترجمة فنظرت إليه السيدة الكبيرة في السن والتي تبدو بصحة جيدة وقالت مبتسمة بلغة عربية جيدة:

“صباح الخير يا بني.”

اندش نوح من إتقانها اللغة فاستطردت قائلة:

“لا تندهش يا ولدي، يبدو أن هذه أول زيارة لك لهذه القرية. نحن اعتدنا على ارتياد القرية من قبل العرب الذين يستأجرون بعض بيوت الأهالي خاصة في الصيف. ما اسمك ومن أين أتيت؟”

ابتسم نوح قائلاً:

“اسمي نوح وأنا من مصر؟”

“أهلاً نوح، من النادر أن يأتينا زوار مصريون، عادة يكون الزائرون من الخليج.”

لم يعلّق نوح في حين أشارت بيدها وقالت:

“انتظر... دعني أقدم لك واحدة من أشهى الفطائر التي أخبزها. إنها ساخنة ولذيذة. أنا متأكدة أنها ستعجبك.”

مد نوح يده لياخذ الفطيرة من يد السيدة أسلي وهو يشم رائحتها الرائعة ويقضم قطعة صغيرة فيقول باستمتاع:

“لقد صدق من قال أنكِ صانعة فطائر من الطراز الرفيع.”
ضحكت السيدة ثم سألت:

“من الذي قال لك ذلك يا ترى؟”

“إنه حامل الحقائق في فندق تيرمال بارك الذي أقيم فيه ولكني لا أعرف اسمه. كما أنه قال لي أمراً آخر عنك.”

“أمرأ آخر! ... ترى ما هو؟”

أخرج نوح من جيبه ورقة نقدية بقيمة مائة ليرة تركية وأجاب مبتسما:

“في البداية دعيني أدفع ثمن هذه الفطيرة الرائعة التي لم أذق مثلها من قبل واعتبري الباقي إعجابا مني ببراعتك في صناعة الفطائر.”

تهللت أسارير السيدة وقالت:

“شكرا لك يا ولدي، هذا كرم بالغ منك.”

قضم نوح قضمة أخرى من الفطيرة ثم قال:

“لقد قال لي حامل الحقائب أنك تعرفين كل أهالي القرية تقريبا. هل هذا صحيح؟”

“بالطبع، فالجميع يشتري من عندي فمعظم أهالي القرية هم زبائن دائمون لي.”

“عظيم جدا، أنا بحاجة لمساعدتك. لقد جئت من مصر خصيصا لمقابلة شخص يدعى باران شيروان قيل لي أنه يسكن في هذه القرية ولكني لا أعلم أين بالتحديد. فهل لك أن تدليني على منزله.”

تغير وجه السيدة الكبيرة ونظرت إلى نوح في شك قائلة:

“جئت من مصر خصيصا لمقابلة رجل لا تعلم أين يسكن! ما الذي دفعك لذلك وماذا تريد منه؟”

استشعر نوح القلق والريبة في ملامحها فقال مطمئنا إياها:

“اطمئني سيدة أسلي. لقد نصحتني معلم آلة القانون الذي أتدرب على يديه في مصر أن أسافر لأتعلم من الأسطورة باران شيروان. هذه الآلة هي شغفي وحلمي منذ الصغر وأنا على استعداد للذهاب إلى أقاصي الأرض لأتعلم على يدي أفضل العازفين.”

نظرت السيدة إلى وجه نوح تتفحصه وكأنها تريد أن تستشعر صدق ما يقول ثم نظرت إلى الأرض في صمت استغرق طويلا حتى قاطعها نوح قائلا:

“سيدة أسلي أرجوك أن تدليني إن كنت تعرفين أين هو. ساعديني بالله عليك.”

لاحظ نوح أن السيدة تنظر خلفه باتجاه بائع الفاكهة المقابل لها فنظر هو الآخر ليلتحظ ما يلتفت نظرها فلم يجد ما يثير الانتباه فأعاد الجملة عليها:

“سيدة أسلي. أنا أعلم أي غريب وليس من السهل أن تثقي بي ولكن أستحلفك بالله أن تدليني على الرجل إن كنت تعرفين مكانه ولن أنسى لك هذا الجميل طوال عمري.”

نظرت إليه السيدة نظرة جادة قائلة:

“اسمع يا بني. يبدو أن الله يؤيد سعيك. أنا لن أستطيع أن أدلك على مكان باران لوعد قطعته له ولكنك محظوظ لأن ابنته كلجين تشتري الفاكهة من المحل المقابل لي. فاذهب وحاول أن تطلب منها أن تأخذك إلى أبيها وإن كنت أتوقع أن ترفض، فباران وابنته يعيشان في شبه عزلة كاملة ولا يريدان أن يحتكا بأحد إطلاقا إلا شخصا أو اثنان من تلاميذ باران القدامى وصديقه المقرب.”

نظر نوح خلفه ليجد فتاة في العشرينات من عمرها ترتدي رداء أبيضاً طويلاً بسيطاً وشعرها الطويل يتدلى على ظهرها وهي تنتقي الفاكهة بهدوء وصمت ثم التفت إلى أسلي قائلاً:

“شكراً لك سيدة أسلي أنا ممتن لك كثيراً. هل قلت أنها تسمى كاجين؟”

“كلجين يا ولدي. وفقك الله فيما تسعى إليه.”

“شكراً سيدة أسلي.”

قالها نوح واتجه بخطوات بطيئة نحو محل الفاكهة حتى اقترب من الفتاة فقال بلهجة تركية ركيكة:

“صباح الخير أنسة كلجين.”

نظرت إليه الفتاة بريية وأخذت خطوتين إلى الخلف ولم ترد فقال باللغة الإنجليزية:

“اسمي نوح من مصر. هل تتحدثين الإنجليزية؟”

استمرت الفتاة في صمتها وهي تنظر إليه بنفس النظرات التي تملؤها الريبة والشك، حاول نوح أن ينطق بجملته أخرى ولكن سرعان ما وجد الفتاة تدفع الحساب وتحمل كيس الفاكهة وتمشي بخطى مسرعة تاركة المكان.

اندهش نوح من ردة فعلها واستشعر الحرج من صاحب المحل الذي نظر إليه بشك فتركه واتجه هو الآخر مسرعا في محاولة لتعقب الفتاة التي أخذت تسير وسط طرق ضيقة بين الأشجار وهو يتعقبها من بعيد متمنيا ألا تشعر به.

استمر نوح ماشيا خلف الفتاة ما يقارب العشر دقائق، وعندما وصلا إلى أطراف القرية رآها تدخل مسرعة إلى بيت بسيط مبني من الخشب حوله حديقة واسعة جميلة، فنظر حوله في محاولة لإيجاد أي علامة مميزة في المكان ولكنه لم يجد شيئا مما أثار قلقه من أن يكون قد ضل الطريق وأنه لن يستطيع العودة من حيث أتى بسهولة، فلقد كان كل تركيزه منصبا على الفتاة وأن يتخفى جيدا حتى لا تستشعر تعقبه إياها.

“حسنا يبدو أنه لا سبيل إلا المضي قدما.”

قالها نوح متجها بتريث إلى المنزل الخشبي الذي دخلته الفتاة وهو لا يعلم ما الذي ينتظره في الداخل.

كانت الساعة تقترب من الساعة مساءً عندما اتجهت مريم نحو الطاولة التي يجلس عليها محمود في المقهى المفضل لديه هو ونوح وما إن وصلت حتى مدت يدها لتصافحه قائلة:

“أعتذر عن التأخير يا محمود، فلارا لم ترد أن تتركني أبداً فانتظرت حتى سنحت الفرصة وألقتها أُمِّي ببعض الألعاب حتى تمكنت من الخروج.”

ابتسم محمود وقال:

“حبيبتي لارا كم أفقدها، ماذا تريدان أن تشربي؟”

“لا شيء فأنا لن أستطيع الجلوس طويلاً. لقد أردت مقابلتك اليوم لأتناقش معك بخصوص أمر هام.”

اعتدل محمود في جلسته ونظر إلى مريم وكأنه يتوقع الموضوع الذي تريد أن تتحدث فيه وقال:

“أنا في خدمتك يا مريم، كيف لي أن أساعدك؟”

نظرت إليه مريم باستعطاف قائلة:

“أنا لا أريدك أن تساعدني أنا بل أريدك أن تساعد صديق عمرك نوح.”

عقد محمود حاجبيه وقال بقلق:

“هل حدث مكروه لنوح؟ هل اتصل بك؟”

“محمود ألا ترى أن ما يفعله صديقك والطريقة التي يتصرف بها هي خطر كبير يجب أن تنقذه منه؟”

تساءل محمود باستغراب:

“أي خطر هذا الذي تتحدثين عنه يا مريم؟”
أجابت مريم بغیظ:

“محمود لا داعي للفت والدوران. كن مباشرا معي أرجوك.”

“يا مريم أنا لا أعرف فعلا ما هو الخطر الذي تتحدثين عنه. إن كنتِ تعتبرين سفر نوح إلى تركيا وسعيه وراء شغفه وحلمه خطرا فاسمحي لي أن أقول لك أنكِ تبالغين كثيرا في هذا الأمر.”

“أبالغ! ماذا تقول يا محمود. هل تعتبرها مبالغة أن ينعزل صديقك عن ابنته وزوجته بالشهور وينفرد بالتدريبات والعزف على تلك الآلة؟ هل تعتبرها مبالغة أن يرفض ترقية مهمة في عمله لأنه لا يريد المزيد من المسؤوليات كي يتفرغ لآلته؟ هل تعتبرها مبالغة أن ينتهي به الأمر أن يستقيل من عمله الذي نجح فيه ويصبح بلا وظيفة أو دخل؟ هل تعتبرها مبالغة أن يسافر صديقك إلى تركيا باحثا عن رجل غريب لا يعرف أين يكون وبمكث هناك فترة لا يعلمها إلا الله حتى يتعلم على يديه؟ هل كل هذا مبالغة أم أنه الجنون بعينه.”

نظر محمود إلى الأرض وكأنه لا يجد ما يقول ثم رفع رأسه
محاو لا تهدئة مريم:

“يا مريم ... إن لم أكن أعرف نوح جيدا لاعتبرته جنونا كما
تقولين. ولكن ما حدث مع نوح هو أمر استثنائي، بدأ من ذلك
الحلم العجيب وانتهى بالرسائل التي تركها له جده واحدة تلو
الأخرى.”

استمرت مريم في حديثها وغضبها وهي تقول:

“أليس لديه عقل يزن به الأمور؟ دعك من نوح الآن، ماذا عنك
وأنت الصديق الذي طالما كان هادئا رزينا يحلل الأمور بمنطقية
ويعطي النصيحة الحقة ... كيف استطعت أن تتركه دون أن
تنبيهه أن استمراره في أفعاله هذه سيجعله يفقد كل ما بناه على
مدار السنين.”

صمت محمود قليلا ثم نظر مباشرة إلى عيني مريم وقال بلهجة
مشفقة:

“إن كنت قد رأيت نوح وهو يعزف على آلة القانون في محل
ذلك الرجل بائع الآلات الشرقية لعرفت حقيقة الأمر. يا مريم لقد
شاهدت صديق عمري كما لم أراه من قبل. لقد رأيت إنسانا يولد
من جديد، رأيت فيضا من السعادة والمتعة والنور يخرج من
نوح وكأنه يعزف لحنا من الجنة. أنا نفسي قد تغيرت منذ ذلك
اليوم وبدأت أفكر في أن أكتشف شغفي وأسعى وراء حلمي أنا
الأخر.”

قالت مريم في عدم تصديق:

“يا إلهي! ماذا أصابكم، حتى أنت يا محمود.”

ثم لفت رأسها وهي تكمل:

“ولكن لا... انظر إليك. بالرغم من تأثرك الشديد بما رأيت وتفكيرك في الأمر فأنت لم تتخذ خطوات جدية كما فعل نوح لأنك رجل مسؤول لا يريد أن يخرب بيته وحياته. فلماذا لم تحذر نوح وتطلب منه التآني وألا يندفع ويغامر بكل شيء بهذه البساطة.”

“نوح لم يخاطر يا مريم. لقد فكر كثيرا وحسب كل الاحتمالات قبل أن يقدم على أي خطوة. فهو يدخر ما يكفيكم لمدة تقرب من عام ونصف ثم إن السمعة التي بناها في عمله خلال السنوات الماضية تضمن له العودة للعمل بسهولة وإيجاد فرصة جيدة وقتما أراد. أما بالنسبة لي فأمرى مختلف ويحتاج إلى ترتيبات عديدة. فلقد ورثت المصنع من أبي وأعتبره أمانة لا يمكن أن أفرط فيها. لا أريد أن تقول العائلة أنني خنت ثقة والدي، لذلك يجب أن أتصرف بحكمة وبروية وأن أجد شخصا موثوقا يستطيع أن يكمل المسيرة بنجاح.”

ثم مال نحوها وقال بصوت خافت:

“المخاطرة الحقيقية يا مريم هي ما نفعله الآن، أن نضحى بعمرنا سعيا وراء حياة زائفة بسبب خوفنا من المجهول. إن لم نفعل كلنا كما فعل نوح ونتحلى بالشجاعة الكافية كي نقاتل من أجل

أحلامنا، ستأتي اللحظة التي نندم فيها ندما يعتصر قلوبنا على كل لحظة ضاعت من عمرنا كنا أسرى فيها للخوف والشك بقدرتنا على أن نحيا بأسلوبنا وليس بأسلوب فرض علينا.”

تسمرت مريم في مكانها وهي تنظر إليه بذهول وكأنها بدأت تدرك حقيقة كانت تحاول دفنها في مكان عميق في قلبها ولكنها سرعان ما أفاقته وأشاحت بيدها وكأنها لا تريد أن تسمع ذلك الصوت الذي يأتي من أعماق نفسها وهي تقول بغضب شديد:

“لا فائدة ... يبدو أن معاشرتك لسالي علمتك الاستهتار وعدم المسؤولية ... حسنا ... أريدك أن توصل رسالة مني إلى نوح في حال اتصل أو اتصلت به أنت.”

تغاضى محمود عن الإهانة الواضحة تقديرا للظرف الذي تمر به وقال باقتضاب:

“بالتأكيد.”

“قل له أنني أنتظر منه عند عودته إلى القاهرة أن يرسل ورقة الطلاق إلى منزل والدتي. فقد اخذت قرارى بترك المنزل أنا وابنتي من الآن، لن أسمح له أن يضيع مستقبلنا أو أن ترى ابنتي والدها وهو يجلس في المنزل بلا عمل كالمرأة الضعيفة.”

رد محمود بأسف:

“لا حول ولا قوة إلا بالله. أسأل الله أن يلهمك الصواب.”

“أحرى بك أن تدعو الله أن يلهم صديقك الصواب.”

قالتها مريم وهي تقف وتمسك حقيبة يدها تاركة المكان بغضب
لفت نظر الجالسين في حين وضع محمود وجهه بين كفيه ثم قال
لنفسه بصوت خافت:

“كان الله بعونك يا صديقي ... أسأل الله أن يثبت قلبك ويهديك
إلى الخير.”

اقترب نوح من باب المنزل الخشبي وعندما أوشك أن
يطرق الباب وجده مفتوحا فدفعه برفق شديد وهو يقول بصوت
مرتفع باللغة الإنجليزية:

“مساء الخير. هل يوجد أحد في البيت.”

وما أن فُتح الباب حتى ارتد نوح إلى الخلف مصعوقا فعلى بُعد
أمتار قليلة كان يجلس رجل في منتصف الخمسينات من عمره
على كرسي متحرك وفي يده بندقيّة قديمة موجهة نحو نوح وقال
بلهجة إنجليزية حاسمة:

“عد من حيث أتيت ولا تنطق بكلمة أخرى وإلا سأفرغ هذه
البندقيّة في رأسك.”

قال نوح مهدئا للرجل والخوف يجري في عروقه:

“حسنا حسنا ... سأنصرف ... اهدأ أرجوك ولا تتهور.”

قالها نوح وهو يغلق الباب ويندفع خارجا حتى وصل إلى مسافة
أمنة فالتفت ينظر باتجاه البيت وأخذ يلتقط أنفاسه بعد هذا
الاستقبال الغير متوقع وهو يحدث نفسه قائلا:

“يا إلهي! كيف يكون هذا هو باران معلم القانون! لقد كاد أن
يقتلني!”

أخذ نوح ينظر حوله وسرعان ما اكتشف أنه قد ضل الطريق
تماما ولا يدري كيف يعود إلى الفندق فأخذ يتلفت يمينا ويسرة
عله يجد من يده له فلم يجد أحدا وكاد أن ييأس لولا أن لمح ببصره
رجلا عجوزا يروي حديقة منزله الخشبي الذي يقع على بعد
عشرات الأمتار من منزل الفتاة.

“حسنا، لنرى كيف سيستقبلني هذا الرجل أيضا.”

قالها نوح لنفسه وهو يقترب ببطء من الرجل العجوز وما أن
وصل لسور حديقته حتى قال باللغة الإنجليزية بصوت مرتفع
وبتوجس:

“مساء الخير سيدي. أنا سائح ولقد ضللت الطريق هلا تدلني
كيف أصل إلى فندق تيرمال بارك؟”

نظر الرجل إليه ثم أشار له بالدخول وهو لا يزال يسقي الزرع.
دخل نوح الحديقة واقترب من الرجل الذي قال بإنجليزية ركيكة
ولكنها مفهومة:

“أهلا بك يا بني. ما الذي دفعك للمجيء إلى هنا، فنحن في منطقة متطرفة من القرية لا يأتيها السائحون عادة؟”

تردد نوح قليلا قبل أن يحسم أمره قائلا:

“سأكون صادقا معك وأرجو أن تتفهم موقعي. في الحقيقة، لقد دلني أحدهم في السوق على ابنة باران شيروان وعندما حاولت التحدث معها وسؤالها عن والدها لم تجب وتركتني واتجهت مسرعة إلى هنا فاضطرت إلى تعقبها لأعلم أين يسكن المعلم باران. ولكني لم أركز في الطريق ولذلك لا أدري كيف أعود.”

قال الرجل بتعجب:

“أتيت لمقابلة باران! مستحيل يا بني. باران يحيا في عزلة تامة وأخذ عهدا على كل من يعرفه في القرية ألا يدلوا أي غريب على مكانه مهما كان السبب. ماذا تريد منه؟”

“إنها قصة طويلة سيدي. لا أريد أن أثقل عليك.”

ابتسم الرجل وهو ينهي ري الحديقة ويمسك نوح من كتفه قائلا:

“أنا أعشق سماع القصص المثيرة. اسمح لي أن أدعوك لكوب من الشاي في منزلي المتواضع كي تحكي لي قصتك.”

قال نوح متعجبا:

“كم أنت مضياف يا سيدي. لماذا إذا استقبلني باران بالبندقية والشر يتطاير من عينيه، لقد كاد أن يقتلني.”

ضحك الرجل واتجه إلى منزله مشيرا إلى نوح أن يتبعه قائلا:

“هكذا هو باران شيروان، عجيب هذا الرجل. لا تأخذ عليه، فأهل القرية هنا مضيفون وطيبون جدا وباران كذلك ولكن لمن يعرفه جيدا.”

فرح نوح في نفسه لأنه وجد من يبدو أنه يعرف باران جيدا ثم تبع الرجل حتى دخلا إلى المنزل الذي وجده بسيطا جدا ولكنه جميل ونظيف.

أشار له الرجل أن يجلس على أريكة مريحة أمام المدفئة ثم قال:

“انتظرنى قليلا حتى أعد لنا كوبان من الشاي.”

“شكرا سيدي لا أريد أن أتعبك.”

“لا عليك أنت ضيف عزيز.”

وماهي إلا بضع دقائق حتى عاد الرجل بالشاي ووضعها على المنضدة أمام الأريكة التي يجلس عليها نوح ثم جلس بجواره قائلا:

“حسنا اشرب الشاي واحك لي بالتفصيل ما هي قصتك وما الذي دفعك لتأتي لمقابلة باران.”

ارتاح نوح للرجل كثيرا وبدأ يروي له كل شيء بداية بحلم جده وصولا إلى سبب قدمه لمقابلة باران. وبعد أن انتهى قال:

“أرجوك سيدي إن كان بإمكانك أن تتوسط لي عند باران لتجعله يقابلني سأكون شاكرا لك مدى الحياة.”

صمت الرجل قليلا ثم نظر إلى نوح بإعجاب قائلا:

“في الحقيقة قصتك هذه أقرب إلى الخيال يا بني ولكني أستشعر فيك الصدق. وأنا معجب جدا بحماسك وشغفك وسعيك الجاد في طلب العلم، فقد كنت أعمل مدرسا وكنت أدم طلابي المجتهدين أصحاب الطموح الكبير.”

ثم صمت قليلا قبل أن يقول بحرج:

“ولكن يا بني لن أستطيع التوسط لك لمقابلة باران ... فأنا لا يمكنني أن أخلف عهدي معه أبدا.”

قال نوح متوسلا:

“أرجوك سيدي ... حياتي كلها متوقفة على مقابلة باران ويبدو أنك من المقربين لديه وأنا متأكد أنه لن يغضب منك عندما يستمع لقصتي.”

“أنا من أقرب الناس لباران في هذه القرية إن لم أكن الوحيد الذي يثق فيه ويتعامل معه. فلقد وفتت أنا وابني الطبيب بجانبه في أثناء مرض زوجته قبل أن تموت وهو لا ينسى لنا هذا الجميل ... ولكن ...”

سكت الرجل قليلا وكأنه تذكر شيئا قبل أن يكمل قائلا:

“اسمع يا بني، يبدو أن القدر يدعمك. فبعد ثلاثة أيام سنقيم حفلة عيد ميلاد حفيدي هنا كما اعتدنا أن نفعل كل عام. وسيحضر باران وابنته للاحتفال معنا. سأعطيك فرصة العمر.”

تهللت أسارير نوح وهو يقول:

“كم أنا شاكر لك سيدي. إذن ستأذن لي بالحضور والاحتفال معكم كي أنتهز الفرصة لأتحدث مع باران.”

ضحك الرجل ثم قال:

“لا لن أفعل ذلك بالتأكيد.”

نظر إليه نوح بإحباط شديد فأكمل الرجل:

“سأعطيك الفرصة بأن تأتي لتعزف لنا على آلة القانون كهدية أقدمها لحفيدي في يوم عيد ميلاده. ودعنا نرى كيف ستكون ردة فعل باران عندما يستمع لعزفك. فأنا أعرفه جيدا، لن يستطيع أن يقاوم آلة القانون والعازفين المهرة عليها. لقد كان يحلم دائما أن يؤسس مدرسة عالمية لتعليم آلة القانون ونشرها في العالم كله لولا الحادث الذي أصابه.”

شرد نوح بذهنه وقال بتوتر:

“ولكن ماذا سيحدث إن لم يعجبه عزفي أو وجده جيدا ولكن لا يرقى للمستوى المطلوب؟”

ربت الرجل على كتفه وقال مطمئنا:

“لا تقلق يا بني. إن ما رأيته في عينيك وأنت تحكي قصتك يؤكد أنك تعزف من أعماق قلبك وبالتأكيد ستلامس أركان قلب وروح باران وعندها سيتمسك هو بك وسيعطيك الفرصة التي أتيت من أجلها.”

أنهى الرجل كلامه تاركا نوح شاردا قلقا فهو أمام تحدٍ مصيري ... أكون أو لا أكون.

التف الرجل العجوز مع حفيده وابنه وزوجة ابنه وبعض الأصدقاء وأفراد الأسرة المقربين حول طاولة عليها كعكة عيد الميلاد وبعض الفطائر ثم قال:

“حسنا دعونا نبدأ الاحتفال فيبدو أن باران سيتأخر.”

ما إن أنهى جملته حتى سمع صوت طرق على الباب فقال مبتهجا:

“مؤكد أنه باران. لقد جاء في الوقت المناسب.”

قالها واتجه نحو الباب وفتحه مرحبا:

“أهلا بصديقي العزيز وابنته الغالية. تفضلا، لقد كنا على وشك البدء بالاحتفال.”

ابتسم باران وأشار لابنته أن تدفع الكرسي للأمام ليدخلا وينضموا للحضور حول الطاولة ثم حياهم باران قائلا بهدوء:

“مساء الخير، كل عام والبطل الصغير بخير.”

“هيا بنا، حان وقت الاحتفال. سأطفئ الأنوار وليشعل أحدكم الشموع.”

قالها الرجل العجوز وهو يطفئ أنوار المنزل بينما قام ابنه بإشعال الشموع في كعكة عيد الميلاد ثم بدأ الجميع بالغناء وعندما انتهوا أخذوا يصفقون ثم قام الجميع بتقبيل الطفل الصغير الذي يحتفل بعيد ميلاده الثالث ويسلمون على والديه متمنين له مستقبلا سعيدا.

وفي وسط هذه الأجواء قام الرجل العجوز بإشعال أنوار المنزل باستثناء ركن صغير يحتوي على كرسيين وطاولة صغيرة وخلفهما ستار تركه مظلما ثم قال بصوت عالٍ:

“أرجو من الجميع أن تعيروني انتباهكم. فلدي مفاجأة لكم.”

تمتم الجميع ثم وقفوا في حالة ترقب والابتسامة تملو وجوههم ثم أكمل العجوز قائلاً:

“لقد قابلت بالصدفة منذ بضعة أيام شابا أتى من مصر في رحلة سياحية وعلمت منه أنه يعزف على آلة موسيقية نحبها جميعا. لذلك طلبت منه أن يكون معنا اليوم ليعزف لنا بعض الألحان الجميلة كهدية مني لحفيدي ولكم جميعا في يوم ميلاده. اسمحوا لي أن أقدم لكم نوح صالح.”

صفق الجميع بحرارة وترقب وأخذوا يلتفتون حول المكان ليروا من أين سيخرج نوح. في وسط التصفيق خرج نوح من خلف الستار إلى ذلك الركن المظلم وأخذ آلة القانون وجلس واضعا إياها على فخذيه بينما الحضور يحاولون تفحص ملامحه من وسط الظلام ولكنها كانت مختفية لحد كبير مما زاد حالة الترقب والإثارة عند الجميع.

“آلة القانون.”

قالها باران بصوت خافت لم يلاحظه أحد ووجهه لا يعبر عن أي انفعال ولكنه كان يحمل كمًا هائلًا من الاندهاش والترقب فلم يكن يتوقع هذه المفاجأة أبدا. فمن ذلك الذي يجرو أن يأتي بعازف لآلة القانون في حضوره.

أما ابنته كلجين فقد كانت تعلق وجهها ابتسامة خفيفة وأخذت تنتظر لوالدها من حين لآخر لتتابع ملامحه ورد فعله الذي لم يكن واضحا.

عندما صمت الجميع اعتدل نوح في جلسته ثم نظر من بين الحضور ليرى المعلم باران فسرت في جسده رهبة عندما وجده يجلس بهدوء ولا يعكس أي ملامح على الإطلاق.

أغلق نوح عينيه وأخذ نفسا عميقا وكأنه يعد نفسه لأن يفصل عما حوله ويدخل إلى عالمه الخاص ليكون هو وآلته الأثيرة وحدهما وأيضا كي يخفف من حدة توتره بسبب الاختبار المصيري الذي يتعرض له.

ثم فتح عينيه وقام بإصدار بعض النغمات ليتأكد من سلامة الأوتار. ثم بدأ العزف..

لقد اختار أن يعزف المقطوعة الخالدة ألف ليلة وليلة لكوكب الشرق أم كلثوم.

لم يكن نوح في هذه اللحظة يعزف بأنامله فقط، ولكن بقلبه وكل جوارحه في حالة عشق ليس لها مثيل. نعم لقد كان اختباراً مصيرياً بالنسبة له ولكن ما أن بدأ بالعزف حتى نسي كل شيء ولم يعد يسمع سوى صوت الألحان الصادرة عن أوتار آتته التي كان في حالة انسجام كامل معها ومع النغمات الساحرة التي تصدرها.

ظل نوح يعزف لستة دقائق كاملة وقد خطفت ألقانه الجميع إلى عالم سحري خاص حتى أنهم تمنوا لو لم تنتهي المقطوعة من فرط الاستمتاع والمشاعر الرائعة التي كانوا فيها...

فتح نوح عينيه بعد أن انتهى ليجد الجميع في حالة صمت تام سرعان ما تحول إلى تصفيق حار وردد البعض بالتركية التي لم يفهمها:

“رائع!”

“لم أستمع لعزفٍ على آلة القانون بهذا الجمال من قبل.”

“ما هذا العزف الرائع.”

ووسط كل هذا الترحيب والتصفيق والجميل التشجيعية لم يركز نوح إلا على وجه باران شيروان الذي لم تتغير ملامحه الجامدة ولكن كان مركزا ببصره على وجه نوح محاولا رؤية ملامحه.

“تعال يا نوح دع الناس ترى وجهك.”

قالها الرجل العجوز بالإنجليزية وردد الجميع بعض الجمل بالتركية وكأنهم يؤيدون ما قال. فقام نوح من مكانه وهو يضم آلة القانون إلى صدره ثم خرج نحو الطاولة وهو يبتسم ويحيّ الحضور محاولا ألا يلتفت ببصره عن باران. ولكن ما أن رآه باران حتى اندهش اندهاشا بالغا وظهر على وجهه معالم غضب وضيق شديدين وقال لابنته:

“هيا بنا نعود إلى المنزل.”

لم تستجب كلجين وكأنها ما زالت في العالم السحري الذي أخذهم إليه نوح بألحانه وأخذت تنظر إليه باستغراب وإعجاب وهي تتذكر كيف كان لقاؤهما في سوق القرية.

“كلجين. قلت لك هيا بنا.”

قالها باران بصوت حاد خافت فانتبهت كلجين وقالت بحرج:

“عذرا يا أبي لم أسمعك.”

“ادفعي الكرسي ودعينا نترك هذا المكان فورا.”

ترددت كلجين قليلا ولكنها استجابت لطلب أبيها ودفعت الكرسي المتحرك نحو الباب. وعندما شاهدهما العجوز أوقفهما قائلاً:

“باران إلى أين أنت ذاهب. ما زلنا في أول الاحتفال.”

نظر إليه باران نظرة قاسية وقال:

“شكرا على الدعوة واعلم أن لنا حديثا آخر في وقت لاحق.”

قالها وأشار لابنته بالاستمرار قدما فدفعت كلجين الكرسي وهي تشعر بالإحراج من أسلوب أبيها ثم فتحت الباب وخرجت مسرعة باتجاه المنزل.

لم يفهم نوح الجملة الأخيرة التي قالها باران بالتركية وأخذ ينظر إلى العجوز ليفهم من ملامحه مدلول الجملة الذي كان واضحا ولكنه لم يرد تصديقه فوجد العجوز ينظر إليه بأسف، وعندها فهم نوح أنها قد تكون نهاية رحلته وصدمة كبيرة في حلمه الذي أتى من أجل تحقيقه.

استيقظت كلجين مع شروق الشمس كعادتها كل صباح حيث تستمتع بروعة الطبيعة من حولها، لكن هذه المرة سمعت صوت لحن عذب يأتي من خارج المنزل فنهضت من السرير مترقبة ونظرت من نافذة غرفتها إلى الحديقة فاندثشت عندما رأت أباهما يجلس على كرسيه المتحرك وسط الحديقة ويعزف

على آلة القانون الخاصة به نفس المقطوعة الرائعة التي كان يعزفها نوح بالأمس.

ارتدت كلجين رداءها الأبيض الطويل واتجهت مسرعة إلى حيث يجلس ولكنها توقفت بعيدا عنه قليلا وأخذت تستمع إلى ألعانه من خلفه حتى انتهى ثم قالت:

“لقد أطربك ذلك الشاب بالأمس يا والدي أليس كذلك؟”

تفاجأ باران فالتفت إلى ابنته قائلاً:

“كلجين، صباح الخير يا حبيبتي منذ متى وأنت تقفين هنا.”

“منذ منتصف المعزوفة تقريبا. ما رأيك في ذلك الشاب؟”

تجاهل باران السؤال وأجاب قائلاً:

“لقد انتهيت. ما رأيك في أن نتناول الفطور سويا هنا في الحديقة فالنسيم رائع هذا الصباح؟”

جلست كلجين على الأرض متكئة بكتفها على ركبة والدها ونظرت في عينيه قائلة:

“لم لا تجيب على سؤالي يا أبي؟ هل هناك ما تخشاه؟”

رد عليها باران في ضيق:

“لم أنتِ مهتمة كثيرا بأمر ذلك الغريب؟”

نظرت كلجين إلى عينيه مباشرة قائلة:

“لأنني لم أسمع بأحد غيرك استطاع أن يعزف على آلة القانون بهذا الإحساس العجيب إلا هذا الشاب. وأنا متأكدة أنه أثر فيك كثيرا.”

أشاح باران بوجهه ولم يرد فأتبعت كلجين قائلة:

“لماذا تخشى هذا الشاب لهذه الدرجة يا أبي؟”

تنهد باران وأمسك وجه ابنته بكفه وقال:

“أنا لا أريد لغرباء لا نعرف عنهم شيئا أن يدخلوا حياتنا يا ابنتي. فكما تعرفين وأذكرك مرارا أنني قد سعيت أنا وأنت منذ سنوات أن نحيا بسلام بعيدا عن صخب المدينة وشراسة الحياة وشر الناس. لقد صدمني سائق مخمور وأضاع مستقبلتي في عز مجدي وتركني عاجزا لا أستطيع الحراك. ولم تستطع السلطات أن تجده فهرب ولم يتم العثور عليه، وتُركت أنا لأدفع الثمن وضاع حقي ومستقبلي. ومنذ ذلك الحين قررت أن العزلة هي الطريق الوحيد كي نحيا بسلام وأمان. ولا مجال بأي حال من الأحوال للغرباء في حياتنا. فهم قد يفتحون علينا أبوابا لا ندري ما تكون.”

ربتت كلجين على يديه بحنان وقالت:

“معك حق يا أبي ولكني أشعر أن هذا الشاب قد أرسله إليك
القدر. هناك سر عجيب في هذا الشاب كما أن أسلوب عزفه فيه
كم من الشغف والإحساس غير عادي. هل تتفق معي في هذه
النقطة يا أبي؟”

ظهرت ملامح الاستسلام في عين باران وهو يقول:

“بلى يا ابنتي. لم أرَ أو أسمع منذ زمن عن أحد يعزف على آلة
القانون بهذه الطريقة وهذا الاحساس المميز. فلديه أسلوب فريد
يقترّب كثيرا من أسلوب المفضل في العزف. ولكن...”

سكت قليلا ثم قال في لهجة حاسمة:

“ولكن مهما حدث لن نفتح الباب للغرباء لدخول حياتنا مرة
أخرى. هيا بنا للدخول للداخل ولا داعي لفتح هذا الحوار معي
مرة أخرى.”

“هل نسيت حلمك يا أبي؟”

توقف باران وحدثه باستنكار في عيني ابنته التي أكملت قائلة:

“لطالما كنت تقول لي أنك كنت تحلم بإنشاء مدرسة لتخريج
أعظم عازفي آلة القانون وأنت تريد أن تنشر هذه الآلة في العالم
أجمع. هذا الشاب رسالة من القدر لكي تعود إلى الحلم من جديد
بعد كل هذه العزلة يا أبي.”

لم يجد باران ما يقوله فأكملت كلجين:

“لم لا تعود للبحث عن أفضل المواهب في العزف على القانون وتدريبهم وإخراجهم إلى العالم. والبدائية هو هذا الشاب الاستثنائي الذي سمعناه بالأمس والذي يسعى وراءك منذ أيام.”

رد باران بغضب شديد:

“لا أريدك أن تتحدثي في هذا الموضوع مرة أخرى؟ هل تفهمين؟”

قالها واتجه إلى المنزل وهو يدفع كرسيه بعنف فلحقت به كلجين وأمسكت بمقبض الكرسي لتدفعه بدلا عنه قائلة:

“سامحني يا أبي. أنا لم أقصد أن أضايقك. لقد أردت فقط أن أطلعك على ما في قلبي وما أفكر فيه منذ الأمس.”

لم يرد باران حتى دخلا المنزل وأغلقت كلجين الباب ثم توقفت قليلا فقاطعها باران قائلاً:

“أدخليني إلى غرفتي. أريد أن أبقى لوحدي قليلاً.”

بدأت كلجين في دفع الكرسي بحزن وما أن وصلا إلى باب غرفة باران حتى سمعا طرقا على الباب فقالت كلجين:

“ترى من يكون الطارق؟”

أجاب باران بحنق:

“لا بد أنه ذلك العجوز الذي دعا ذلك الشاب بالأمس، افتحي الباب فسيجد مني ما يردعه على أن يقوم بمثل هذا الأمر مرة أخرى.”

تركته كلجين واتجهت نحو الباب لتفتحه وما أن رأت الطارق حتى وقفت متمسرة عاجزة عن النطق، فكما توقع والدها لقد كان جارهم العجوز ولكنه لم يأت وحده بل أتى بنوح معه وبدأ أن الموقف على وشك الانفجار.

“انتظرنى هنا يا نوح من فضلك.”

قالها جار باران العجوز وهو يحرك رأسه وكأنه يستأذن كلجين بالدخول، فتنحت جانبا لتفسح له الطريق ليدخل وما أن فعل حتى وجد باران أمامه على كرسيه وهو ينظر إليه بغضب قائلاً:

“لقد خذلتني وخنت العهد ويجب أن تعلم أنني لا أرحب في منزلي بمن يخون العهد بعد اليوم. خذ هذا الشاب الذي جئت به واذهب الآن ولا داعي لأن تنتهي ما بيننا بشكل سيء.”

تنهد العجوز وكأنه يعذر باران فيما يقول ثم رد قائلاً:

“اسمع باران أنا لم أخن العهد ولم آتي بالشاب لبيتك لأفرضه عليك كأمر واقع.”

نظر إليه باران بدهشة مستكرا وهم أن يقول شيئا ولكن العجوز قاطعه قائلاً:

“لقد حرك هذا الشاب شيئا ساكنا في قلبك منذ سنوات. لقد كنت أرمقك ببصري ليلة أمس وعلى الرغم من أنك حاولت أن تخفي تعابير وجهك ولكني أعرفك جيدا وقد لاحظت السعادة الغامرة في عينيك.”

كانت كلجين تقف جانبا تراقب الحوار حين التفت إليها العجوز قائلا:

“وأنا متأكد أن ابنتك شعرت بذلك أيضا إن لم تكن قد حدثتك عنه بالفعل.”

نظرت كلجين إلى الأرض مستشعرة الحرج في حين أكمل العجوز قائلا:

“لقد بعث القدر هذا الشاب إلى هنا. فلو سمعت قصته ستدرك ما أدركته وأيقنت به منذ أن التقيته. لقد أتى من بلاده بسبب قصة عجيبة ويحمل في قلبه حلما كبيرا وإصرارا أكبر على تحقيقه. لقد أصيب هذا الشاب بإحباط واكتئاب وكان حياته قد انتهت عندما انصرف الضيوف وانتهى حفل أمس وكاد أن ييأس ويعود إلى بلاده لولا أن هدأته وطلبت منه المبيت عندي حتى نقابلك في الصباح. لو عاد هذا الرجل يا باران إلى بلاده دون أن تسمع ما عنده فستكون قد أضعت حلما كبيرا ... حلمه وحلمك أنت أيضا باران.”

نظر إليه باران مستغربا في حين أكمل العجوز:

“نعم باران حلمك أنت أيضا. ألم تقل لي ذات يوم أنك كنت تحلم أن تصل بألة القانون للعالمية. هذا الشاب يحلم كحلمك ويمكنك أن تحقق من خلاله ما لم تستطع تحقيقه أنت.”

نظر باران إلى الأرض مفكرا ثم رفع رأسه ونظر إلى ابنته التي عبر وجهها عن تأييدها لما قاله جارهما العجوز الذي قطع الصمت قائلاً:

“لا تجعل حادث الماضي وما تعرضت له يفسد المستقبل ... مستقبلك ومستقبل الشاب الذي يعول حلمه عليك.”

سرت قشعريرة في جسد باران عند سماعه هذه الجملة الأخيرة والتي يبدو أنها مست حلمه القديم وبدأت بمسح الصدا الذي تراكم منذ سنين ثم أكمل العجوز بلهجة حانية:

“باران. لقد بعث القدر هذا الشاب ليبيت في حلمك الحياة. أنا لا أطلب منك سوى أن تستمع لقصته ثم تحكم بنفسك وتقرر ماذا تريد أن تفعل.”

أخذ باران يفكر كثيرا وسكت الجميع في ترقب لما سيقوله. وبعد فترة صمت دامت بضع دقائق نظر إلى ابنته قائلاً:

“كلجين. أدخلني ذلك الشاب.”

تهللت أسارير كلجين والعجوز الذي ربت على كتفه قائلاً:

“نعم القرار يا جاري العزيز.”

اندفعت كلجين مسرعة لتفتح الباب وتدعو نوح للدخول قائلة
بخجل:

“تفضل. أبي يريد أن يقابلك.”

توقف نوح لوهلة وكأنه لم يصدق ما سمع ثم دخل بخطوات
حذرة بطيئة حتى وقف أمام باران والعجوز قائلا وهو ينظر إلى
الأرض في أدب التلميذ أمام معلمه:

“شكرا لك سيد باران أن سمحت لي أن أتحدث معك.”
لم يجب باران ولكنه دفع كرسيه المتحرك متجها لغرفة المعيشة
ثم تبعته كلجين قائلة:

“تفضلا إلى غرفة المعيشة.”

اتجه الجميع للجلوس في غرفة المعيشة البسيطة في هذا البيت
الذي تشعر فيه أنك وسط الطبيعة حيث صنع كل شيء تقريبا من
الخشب ومن المواد الطبيعية حولهم.

جلس الجميع في صمت حتى وكز العجوز نوح في فخذيه وكأنه
يدعوه للحديث فتنحنح نوح ثم قال:

“اسمح لي سيد باران أن أعرفك بنفسي. اسمي نوح من مصر
وكنت أعمل مديرا لأحد فروع بنك من البنوك العالمية الشهيرة.
أنا متزوج وعندي طفلة اسمها لارا أحبها كثيرا. أما عن السبب
الذي دفعني للقدوم إلى هنا فقستي كالأتي ...”

وبدا نوح بسرد القصة منذ أن آتاه جده في الحلم حتى وصوله
لتركيا لمقابلة باران وانتهى قائلا:

“سيد باران لقد استقلت من وظيفتي وتركت ابنتي وزوجتي
وجئت من بلدي إلى هنا وأنا أحمل في قلبي حلما أعزم على
تحقيقه. وأتمنى من الله أن تساعدني في تحقيق هذا الحلم. فأنا
على يقين أنك أنت المعلم الذي أراد لي جدي أن أبحث عنه. سيد
باران إن آلة القانون بالنسبة لي ليست مجرد آلة. إنها العشق
والسحر. إنها الآلة التي تنسج من خلالها أنغاما لترسم العالم كما
تريد أن تراه وتحيا به. آلة القانون هي روح الحياة بالنسبة لي.”

اندفعت كلجين قائلة:

“عجبا يا أبي. هذه الجملة شبيهة بجملتك. فقد كنت دائما تقول لي
(آلة القانون هي الحياة).”

نظر باران إلى نوح قائلا:

“اسمع يا فتى. إن القصة التي رويتها لي هي أقرب للخيال منها
إلى الواقع. وأنا أتعجب كيف صدقها واقتنع بها هذا العجوز.”

نظر العجوز ونوح إلى بعضهما البعض بينما أكمل العجوز
قائلا:

“ولكني سأساعدك. ليس لأنني منبهر بقصتك ولكن لأنني لم أسمع
عزفا كالذي عزفته بالأمس منذ سنين طوال. أنت موهوب دون
شك ولكن مازال أمامك الكثير لتتعلمه مع أن موهبتك وعشقتك

للآلة إن صحا سيمكنانك من أن يكون لك باع طويل في
الموسيقى وعالم القانون بالأخص. فأتمنى ألا تخون الثقة فأنا
سأقوم بما كنت أتجنبه منذ سنين طويلة.”

أشرق وجه كلجين بينما ربت العجوز مبتسما على كتف نوح
الذي يبدو أنه لم يستوعب الموقف أو يصدق ما حدث فقال:

“هل يعني ذلك أنك وافقت على أن أتعلم آلة القانون على يديك؟”

أجاب باران بجديّة:

“لا تسألني عن الأمر مرتين.”
“لم أقصد ولكني لا أصدق ما أسمع. أنا مدين لك بحياتي فأنت لا
تعلم مدى الأمل الذي أحييته في قلبي بموافقتك. ولكن هل لي أن
أسأل كم ستستغرق فترة التدريب.”

نظر إليه باران بضيق:

“يبدو أنك من النوع الذي يسأل كثيرا وأنا لا أحب ذلك.”

رد نوح في حرج:

“عذرا سيد باران ولكني جنّت إلى تركيا بتأشيرة سائح والتي
ستنتهي صلاحيتها بعد ٩٠ يوما.”

قال باران في حزم:

“هذا ليس من شأني.”

بدأت على نوح علامات الحيرة والتوتر فتدخل العجوز قائلاً:

“لا تقلق يا نوح سأحاول أن أجد لك عملاً من خلال علاقاتي وبذلك نستطيع استخراج تأشيرة عمل لتقيم هنا حتى تنتهي من فترة التدريب.”

ابتسم نوح وقال للعجوز في ارتياح:

“شكراً سيدي. أنا لا أعرف كيف أشكرك على إيمانك بي ومساعدتك لي.”

ابتسم الرجل وقال:

“ليس هذا فقط، عليك أن تحضر أمتعتك من الفندق. فأنت ستقيم معي في بيتي لتكون قريباً من معلمك وتساعدني في رعاية الحديقة. فكما رأيت أنا أسكن وحيداً ويأتي ابني وحفيدي ليزوراني بين الحين والآخر.”

“هذا كثير حقاً، لا أعرف كيف سأرد لك الجميل.”

ضحك العجوز وهو يقوم من مجلسه قائلاً:

“فقط لا تخذل ثقة المعلم فيك.”

قالها واتجه نحو الباب مغادراً وهو يقول:

“والآن سأترككما لتبدئا أول درس.”

“ليس الآن.”

استوقفه باران بحزم وهو يدفع كرسيه مغادرا غرفة المعيشة وخلفه ابنته ثم أكمل قائلا:

“سنبدأ يوم الأحد مع بداية الأسبوع القادم عند شروق الشمس.”

ترك باران وابنته نوح والعجوز وحدهما في غرفة المعيشة ثم قال نوح بصوت خافت:

“لماذا علينا الانتظار أسبوعا كاملا! أنا لا أطيق الانتظار كل هذا الوقت. لماذا لا نبدأ اليوم أو حتى غدا.”

“تحلى بالصبر يا بني واحتفل بهذا الانجاز، فلقد حصلت على ما تريد. والآن عليك أن تستمتع وتتمرن وتطربني كل ليلة بعزفك الرائع حتى يحين موعد الدرس الأول.”

حرك نوح رأسه موافقا بابتسامة خفيفة ثم شرده بذهنه فقد بدأ الشك يساوره. لم يكن يدري إن كان سيتحمل أسلوب معاملة المعلم القاسية تلك أم أن الأمور ستتأزم بينهما في القريب العاجل.

اقتربت كلجين من نوح الذي كان واقفا شاردا يتأمل
غروب الشمس أمام منزل باران وما أن أصبحت خلفه حتى
قالت:

“لماذا تبذو حزيننا اليوم؟ هل حدث ما ضايقتك من أبي؟”

التفت إليها نوح مبتسما وأجاب:

“أهلا كلجين. كيف لاحظت ذلك؟ في الحقيقة إنه أمر شخصي
ليس له علاقة بالمعلم باران على الإطلاق. بالعكس ... فمنذ
أربعة أشهر لم أكن أتخيل للحظة أن تكون علاقتي بأبيك كما هي
عليه اليوم. فأنا أعتبره أبا لي وهو يعاملني كابنه تماما. الحمد لله
أني استطعت أن أكسب ثقته وحبه.”

اقتربت كلجين لتقف بجواره وتتأمل الغروب معه ثم قالت:

“كنت متأكدة من أن علاقتك بأبي ستتحسن. فلقد أعجب بك كثيرا
منذ أول يوم سمعك فيه وأنت تعزف، ولكنه لم يرد أن يستسلم
لذلك الإحساس. فليس من السهل أبدا بل من المستحيل أن يسمح
لغريب بدخول حياته.”

نظر إليها نوح وتردد قليلا قبل أن يسألها:

“هل تستمتعين بحياتك في هذا الوضع؟”

تعجبت كلجين من السؤال ولم تجب فحاول نوح الإيضاح قائلا:

“أنا أقصد أن أسأل إن كنت تستمتعين بهذه الوحدة والعزلة التي فرضها عليك والدك منذ سنين. فمن الصعب على الإنسان أن يحيا هكذا دون احتكاك بالبشر.”

نظرت كلجين لقرص الشمس الذي اقترب من الزوال وأجابت:

“ولماذا افترضت أن السعادة تأتي من الاحتكاك بالبشر؟ السعادة قرار داخلي. أنت تستطيع أن تشعر بالسعادة أينما كنت ووقتما أردت. لقد اخترت هذه الحياة بمحض إرادتي. فأنا أحيأ بسلام وأمان كاملين وسط الطبيعة الساحرة ووسط معارفنا في هذه القرية التي يسكنها أناس طيبون كجارنا العجوز. لا يفترض أن يريد الإنسان شيئا أكثر من ذلك.”

صمتت قليلا ثم سألته:

“هل لي أن أسألك عن ذلك الأمر الشخصي الذي قلت أنه السبب في الحزن الذي أراه في عينيك اليوم؟”

“قبل أن أجيبك... هل لي أن أعلق على آخر ما قلتي؟”

“بالتأكيد ولكن، ترى ما الذي أثار فضولك فيما قلته؟”

قال نوح في حرج:

“لقد قلتي (لا يفترض أن يريد الإنسان شيئا أكثر من ذلك). ولكني أظن أن هناك شيئا مهما جدا لا يستطيع الإنسان أن يحيا بدونهُ.”

نظرت إليه كلجين متسائلة:

“وما هو هذا الشيء يا ترى؟”

شعر نوح بالحرَج فلقد ظن أنها ستستنتج ما يقصد فتردد قليلا
قبل أن يقول:

“الحب مثلا. ألا تظنين أنه شيء لا يستطيع الإنسان أن يحيا
بدونه؟”

ضحكت كلجين بصوت خافت ثم أجابت:

“ومن قال لك أنني لا أحب؟”

اندهش نوح وقال:

“حقا؟ كيف ذلك؟ من هو سعيد الحظ الذي يمكن أن تكوني قد
أحببته وسط هذه العزلة؟”

“أعذرنِي إن قلت أن هذا قصور كبير في التفكير منك.”

صدمت جملة كلجين الأخيرة نوح فقال:

“ماذا تقصدين؟”

“لماذا تحصر الحب في العلاقة بين الرجل والمرأة؟ أنا أحب كل
شيء حولي وأستمتع بانسجامي مع الكون وخالق الكون. بالنسبة
لي الحب هو حالة تناغم كامل مع الحياة وهو أشمل بكثير من

مجرد علاقة بين رجل وامرأة. وفي الحقيقة أنا أخشى من هذه العلاقة وأظن أنها يمكن أن تقضي على حالة الانسجام والتناغم تلك في مواقف كثيرة.”

تعجب نوح وتساءل:

“كيف يمكن لعلاقة حب بين رجل وامرأة أن تفسد تناغم الإنسان مع الحياة.”

نظرت كلجين نحو الأفق مجيبة:

“عندما رأيت كم الألم والحزن الذي كان فيه أبي بعد فراق والدتي أصبحت أخشى هذه العلاقة. فعندما يقل الحب أو يختفي بسبب أقدار الكون أو ظروف المعيشة يتحول الإنسان إلى شخص محمل بالهموم ويفقد انسجامه مع الحياة.”

صمت نوح ومالت عينيه الحزن ثم قال:

“معك حق، فهذا هو الأمر الشخصي الذي سألتني عنه.”

“حقا وكيف ذلك؟ ماذا حدث؟”

نظر نوح إلى الأرض وقال بلهجة حزينة متنهدا:

“لم أستطع أن أكلم زوجتي منذ أن وصلت إلى تركيا. أنا افتقدتها كثيرا وأشتاق لسماع صوت ابنتي لارا التي كان عيد ميلادها

البارحة. كم أتمنى أن أكلمها وأهنئها بعيد ميلادها ولكن زوجتي لا ترد على اتصالاتي ولا ترغب بالحديث معي.”

نظرت كلجين إليه وسألت باندهاش:

“هل هذا معقول؟ أنت لا تعرف أي شيء عن أسرتك منذ أن أتيت إلى هنا؟”

“لا أنا أطمئن عليهم باستمرار من صديقي محمود. ولكن زوجتي مريم تركت المنزل غاضبة ولا تريد التحدث معي وتحرمني من سماع صوت ابنتي بسبب اندفاعي وراء حلمي وتركها لهم ولوظيفتي وسفري إلى هنا. هي تعاقبني على سعبي وراء سعادتني وتتهمني بالجنون وعدم المسؤولية.”

سكنت كلجين وكأنها تعطي الفرصة لنوح ليستكمل ويخرج كل ما بداخله:

“في الحقيقة أنا حزين جدا لأنها لم تقف بجانبني في هذه الفترة الحرجة من حياتي ولم تتفهم ما بداخلي. وما يحزنني أكثر أنها نسيت كل ما كان بيننا من حب كبير. فهي آخر شخص كنت أتصور أن يتخلى عني.”

استمرت كلجين في صمتها فأكمل نوح:

“هل تعرفي كلجين ... أحيانا أتساءل لماذا دائما طريق السعادة ممهد بالأشواك والقرارات الصعبة والتضحيات. أنا لم أطلب الكثير عندما أردت أن أستعيد شعفي وأستمع لصوت قلبي. لماذا

أواجه بكل هذا الكم من الصعاب وأضطر إلى أن أضحي
بأسرتي وابنتي وعملي من أجل ذلك.”

ابتسمت كلجين مجيبة:

“أنت لم تضحي من أجل السعادة يا نوح ... كما أن الطريق
الممهد بالأشواك الذي سرت فيه هو ليس طريق السعادة. السعادة
يا نوح طريق ممهد بالمتعة والقيمة والسلام. الأشواك والصعاب
التي تواجهها هي موجودة في الطريق القديم الذي كنت موجودا
فيه ولكنها تبدو واضحة عند حدوده فيزداد الألم عندما تأخذ
قرارك في التحرر من هذا الطريق المظلم من أجل العبور إلى
النور والحياة الواسعة الرائعة خارج هذا الطريق الشائك.”

سكنت قليلا ثم أتبعته:

“عزمك أن تسير في الطريق الصحيح يكشف لك الكثير من
الأمر التي لم تنتبه لها أو تغافلت عنها. عندما تسير في طريق
الحق يزداد بصرك وبصيرتك وترى الحقائق جلية كما لم تراها
من قبل. فمثلا ...”

ترددت كلجين قليلا قبل أن تكمل قائلة:

“فمثلا من معاني الحب الحقيقي هو دعم من تحب وتتمنى له
الخير كيفما ارتأه المحبوب وأن تقف بجانبه مهما حصل. ولكن
ما فعلته زوجتك يدل على ...”

سكنت كلجين وشعرت بالحرج مع نهاية جملتها الأخيرة فقالت:

“عليّ الدخول الآن لإيقاظ والدي. سيبدأ الدرس بعد قليل. وأنت اذهب لتحضر آلة القانون.”

نظر إليها نوح بصمت وفي قلبه شعور عجيب وكأن هناك الكثير من الأمور التي تجلت أمام عينيه لم يدرك أهميتها أو حقيقتها من قبل.

ثم أخذ يتابع كلجين ببصره حتى دخلت المنزل ثم التفت لمشاهدة آخر لحظات الغروب والشمس تختفي تماما في الأفق ثم انصرف ليستعد لدرسه مع المعلم باران وفي داخله تساؤلات عديدة أثارها كلجين بتعليقها الأخيرة حول مستقبل أسرته عند عودته إلى مصر.

أنهى نوح عزف مقطوعة رائعة على آلة القانون أمام معلمه وكالعادة كان في عالم آخر من الأنغام السحرية. وبينما هو مغمض العينين ليستشعر صدى آخر نغمة عزفتها أنامله قاطعه باران قائلاً:

“رائع يا نوح ... لم أحلم في حياتي بتلميذ أفضل منك.”

ابتسم نوح ابتسامة عريضة وقال:

“ذلك لأنني لم أحلم في حياتي بمعلم أفضل منك.”

ضحك باران ثم صمت قليلا وتردد قبل أن يقول:

“في الحقيقة يا نوح أنا أعتبرك مثل ولدي وأكثر وأتمنى أن تبقى هنا دائما ولكن ...”

بدا القلق على وجه نوح وكأنه كان يخشى هذه اللحظة منذ فترة فأكمل باران قائلا:

“ولكن هذا هو الدرس الأخير وتستطيع أن تعود إلى بلدك في أي وقت تشاء.”

استقبل نوح الجملة بنظرة فيها حزن عميق وقال:

“لقد كنت أخشى هذه اللحظة على الرغم من يقيني أنها ستأتي. ولكن هل أنت متأكد أننا انتهينا من كل شيء؟ ألم يعد هناك ما تعلمني إياه؟ أعلم أننا قد أمضينا أكثر من ستة أشهر من التدريب المستمر ولكن أنا دائما أتشوق للمزيد منك.”

بادل باران نوح النظرة الحزينة وأجاب قائلا:

“لقد علمتك كل أسرار هذه الآلة الساحرة. إنها الآلة الجامعة ... الآلة الأم عند الشرق وما علمتك إياه سيجعلك تأخذها وتظهر روعتها للغرب أيضا. لقد تعلمت مني وأتقنت ما لا يعرفه إلا القليل من عازفي القانون على مستوى العالم. و عليك الآن أن تتطور وتتقدم بما علمتك إياه وتصنع مدرستك وأسلوبك الخاص في العزف.”

“في الحقيقة أنا لم أتعلم منك آلة القانون فقط ولكني تعلمت قيم ومعاني وعرفت معنى للحياة لم أعرفه من قبل. لن أنسى ما علمتني إياه أبدا.”

مال نحوه باران ونظر في عينيه مباشرة قائلاً:

“ليس المهم أن تتذكر ما قلته لك. المهم أن تستفيد من هذه المعلومات وتحقق الحلم الذي لم أستطيع تحقيقه. لا بد أن تري العالم عبقرية هذه الآله وتأسر قلوبهم بأنغامها. أريد أن أسمع عنك قريباً جداً. إن لم يذع صيترك فسيكون قد ذهب جهدي وثقتي بك هباءً.”

أخذ نوح نفساً عميقاً ثم قال بثقة:

“لن يمنعني من تحقيق هذا الحلم إلا الموت بإذن الله. أعدك أن أعمل بكل ما أتاني الله من طاقة لأجعل من آلة القانون أسطورة يحكي عنها التاريخ ويكتب لها مجداً جديداً في عالم الموسيقى.”

ما أن أنهى نوح هذه الجملة حتى دخلت عليهم كلجين بصينية الشاي الأخضر التي اعتادت تقديمها إليهم مع انتهاء وقت الدرس.

نظرت كلجين إلى كليهما فشعرت بشيء غريب في أعينهم فسألت نوح:

“ما بكما؟ لم يبدو على وجوهكم الحزن؟”

“سأذهب للاستراحة في غرفتي قليلاً. سأراك لاحقاً يا نوح.”

قالها باران وهو يدفع الكرسي المتحرك ليذهب إلى غرفته بينما تابعتة كلجين بنظرها وما أن خرج حتى التفتت إلى نوح لتسأله:

“ماذا حدث يا نوح؟”

وضع نوح وجهه بين كفيه وفركه بيديه قبل أن ينظر إلى الأرض محبباً:

“لقد كان درس اليوم هو الدرس الأخير يا كلجين. يمكنني الآن العودة إلى بلدي في أي وقت.”

تسمرت كلجين في مكانها وارتعشت يداها وهي تضع الصينية على الطاولة وقالت مظهرة الفرحه:

“رائع، هذا يعني أنك ستنتقل إلى مرحلة جديدة في رحلتك لتحقيق حلمك. المرحلة القادمة هي مرحلة المجد بالتأكيد.”

ابتسم نوح وقال:

“أعلم أن هذه اللحظة كانت قادمة لا محالة ولكني لم أتخيل أنها ستجعلني حزينا لهذه الدرجة. من الطبيعي أن أكون متشوقا للعودة لبلدي وأهلي وأسرتي وأصدقائي وأبدأ مرحلة جديدة من حلمي كما تقولين، ولكن أنا لا أتخيل الحياة بدونكما. لقد تغيرت كثيرا في الفترة التي قضيتها معكما وتعلمت منك أنتِ بالذات المعنى الحقيقي للسعادة.”

نظرت كلجين إلى الأرض بحرج وهي تقول:

“سنفتقدك كثيرا يا نوح ولكن ما سوف يصيرنا أننا سنسمع عنك كل خير وسنراك قريبا في الأخبار وأنت تجوب العالم لتعلي مجد

آلة القانون ... الحلم الذي طالما حلم به أبي. وأعلم أنه فعل معك ما لم يفعله مع أيًا من تلاميذه طوال حياته. فلقد اختارك أنت بالذات لتكون خليفته.”

في هذه اللحظة دخل عليهما باران الغرفة مرة أخرى وهو يدفع كرسيه المتحرك ومد يده إلى نوح ليأخذ ما يضعه في كفه قائلاً:

“هذه يا نوح هدية صغيرة لك. إنها الريشة التي أضعتها في أصابعي وأنا أعزف على آلة القانون. البسها دائماً وأنت تعزف يا نوح حتى تتذكرني وتعرف أن أناملك هي خليفة أنامل باران شيروان. وحتى تتذكر حلمنا المشترك.”

ظهرت ملامح التأثير على وجه نوح مازجتها بعض الدموع في عينيه قبل أن يقول:

“شكراً يا معلمي العظيم. أعدك أنني لن أعزف بدونها أبداً فلي الشرف أن أحاكي أنامل أحد أعظم عازفي آلة القانون في التاريخ.”

قالها وساد الصمت الممزوج بالحزن على الجميع وما هي إلا لحظات حتى كان نوح خارج المنزل يقف وسط الحديقة الواسعة يتأمل في النجوم ويفكر في المرحلة القادمة التي ستكون بالتأكيد التحدي الأكبر في رحلته. فهو الآن لا يحمل فقط مسؤولية وصية جده بل أيضاً وصية وثقة وحلم معلمه.

(٥)

جلست مريم في غرفة المعيشة في بيت والدها تقرأ
لابنتها لارا قصتها المفضلة بينما كانت والدتها جالسة على
الكرسي المجاور تشاهد مسلسلا عربيا على التلفاز عندما سمعا
صوت جرس الباب فانطلقت لارا من مكانها وهي تجري نحو
الباب قائلة:

“أنا أنا سأفتح الباب. انتظر أيها الطارق.”

وما أن وصلت لارا إلى الباب وفتحته حتى صرخت من الفرحة
قائلة بصوت عالي:

“أبيبيبي. إنه أبي يا أمي ... إنه أبي يا جدتي.”

ثم ارتمت لارا في حضن نوح الذي أخذ يقبلها ويضمها إليه بشدة
وهو يقول:

“حبيبة وأميرة والدها. كيف حالك لقد افتقدتك كثيرا.”

ردت لارا بصوتها الطفولي الملائكي:

“وأنت أيضا يا أبي افتقدتك كثيرا وكنت أسأل أمي عنك كل يوم تقريبا ولكنها قالت أنك ربما لن تعود إلينا مرة أخرى... ما هذا الشيء الكبير الذي تحمله؟”

ضايقت هذه الجملة الأخيرة نوح ولكنه لم يرد أن يشعر لارا بذلك فقال مبتسما:

“أنظري ماذا أحضرت لك. إنها عروستك المفضلة ولكن بالحجم الكبير.”

قفزت لارا من الفرحة وارتمت في حضن أبيها وأخذت تقبله وفي هذه الأثناء قالت مريم لأمها:

“لا أريد مقابله. من فضلك استقبليه أنت يا أمي.”

لم تعطي أمها فرصة الرد واندفعت مسرعة نحو غرفة نومها فلمحها نوح بطرف عينه من عند الباب ونادتها لارا قائلة:

“أمي لقد عاد أبي.”

وقفت مريم للحظة وجاءت عينها في عين نوح ولكنها عادت مسرعة إلى غرفتها دون إبداء أي اهتمام لقدم نوح.

“حمدا لله على سلامتك يا بني تفضل. لا تقف عند الباب كثيرا”

قالتها والدة مريم وهي تشير إلى نوح بالدخول فدخل ممسكا يد ابنته وقال:

“شكرا يا حماتي العزيزة. لقد افتقدتك كثيرا، كيف حالك وكيف هي صحتك؟”

“بخير حال يا حبيبي. استرح يا بني.”

جلس نوح وأمسك وجه لارا بكفيه وقبلها ثم قال:

“أستسمحك حبيبتي أن تذهبي لتنادي أمك وتقولي لها أنني أفقدتها كثيرا.”

“حاضر أبي. سأعود حالا.”

قالتها وجرت مسرعة لغرفة والدتها بينما نظر نوح إلى حماته قائلا بتأثر:

“هل يرضيك ما فعلته مريم يا حماتي؟”

نظرت إليه حماته بحزن وقالت:

“في الحقيقة أنا حزينة جدا لما آل إليه الوضع بينكما ولكن اعذرنى يا نوح، مريم معها حق هذه المرة. لقد كنت منفصلا عنهما لشهور طويلة ثم جاء هذا السفر الذي تركتهما من أجله دون حتى أن تحدد موعدا واضحا لعودتك.”

“ولكن يا حماتي إنها ظروف استثنائية ولقد شرحتها لمريم ولكنها رفضت أن تقف بجانبى.”

“مريم طيبة يا نوح ولكنها تقدر العمل والمسؤولية ولقد شعرت بعدم الأمان كثيرا في الفترة الماضية. وأثر فيها كثيرا تجاهلك لأمرها وأنت تعلم أنها تركت المنزل بعد سفرك وطلبت الانفصال.”

اعتدل نوح وقال مدافعا عن نفسه:

“أقسم بالله أنني لم أعلم بهذا الطلب إلا عند عودتي من السفر. لم يشأ صديقي محمود أن يبلغني به حتى لا يؤثر ذلك على المهمة التي سافرت من أجلها.”

هزت حماته رأسها نافية وهي تقول:

“حتى لو كان هذا صحيحا يا نوح. لو كنت مكانك لقطعت سفري وعدت بعد أن استشعرت تدهور الموقف.”

“لقد حاولت كثيرا الاتصال بمريم. طوال هذه الفترة كنت أتصل بها بشكل يومي ولم أياس ولكنها لم ترد على اتصالاتي مطلقا وحرمتني من أن أتحدث مع ابنتي وبالذات في يوم عيد ميلادها.”

قالت حماته بحرج:

“معك حق ولكن عليك أن تعذرها فما قمت به كان تجاهلا كاملا لها وتكونت لديها فناعة مع الوقت أن هدفك الذي تسعى وراءه أعلى عندك من أي شيء حتى زوجتك وابنتك. حتى أمك زارتنا وحاولت تهدئة الوضع ولكن عندما سمعت القصة كاملة من مريم وافقتها على تركها للمنزل وغضبت كثيرا من تصرفك.”

قال نوح محبطا حزينا:

“نعم لقد وبختني أكثر من مرة عندما كنت أتصل لأطمئن عليها
ولكن يا حماتي لماذا لا يريد أحد أن يفهم أنه أمر استثنائي
وسينتهي وسيعود كل شيء على ما يرام.”

مالت حماته برأسها وكأنها تدعوه لأن يقول شيئا أكثر منطقية
وقالت:

“يا نوح أنت غائب تماما عن رعاية أسرتك منذ أكثر من عام.
كيف تريدها أن تصبر وأنت لا تعرف نهاية ما أنت مقدم عليه،
لقد ضحيت بعملك ودخلك وعرضت أسرتك للخطر. أعذرنا
جميعا يا نوح فما قمت به أمر يهز استقرار أي بيت.”

قال نوح في استسلام:

“يبدو أن معك حق يا حماتي ولكن كلا الخيارين كان صعبا،
التخلي عن حلمي أو تحمل بعد زوجتي وابنتي. ولكن فعلا يبدو
أنني تماديت كثيرا في الانشغال عن زوجتي وابنتي ولم أوازن
بين شعفي وبين واجبهم علي. هل لي أن أدخل لمريم وأحاول
الاعتذار منها؟”

فرحت حماته وقالت:

“بالتأكيد وأسأل الله أن يوفق بينكما.”

قام نوح متجها إلى غرفة مريم في اللحظة التي خرجت فيها لارا تجري مسرعة نحوه قائلة:

“أمي تقول أنها تشعر بالتعب الآن يا أبي. تعال لتلعب معي قليلا حتى تستريح أمي وتستطيع الخروج لمقابلتك.”

نزل نوح على ركبتيه وقبل لارا وقال:

“حسنا حبيبتي. انتظريني عند جدتك وسأذهب لأطمئن على أمك وأعود فورا للعب سويا.”

هزت لارا رأسها موافقة وقام نوح متجها لغرفة مريم وطرق الباب ولكنه لم يسمع أي رد فأدار مقبض الباب ببطء وأدخل رأسه من فتحة الباب ليشاهد مريم تجلس في كبرياء فقال لها:

“هل يمكنني الدخول؟ لقد افتقدتك كثيرا يا حبيبتي.”

نظرت إليه مريم باستنكار وقالت بحدة وحزم:

“اسمع يا نوح مهما دار بيننا من حديث ستكون النهاية واحدة. وأظن أن صديقك الوفي أوصلها إليك. لا تأتي إلى هنا مرة أخرى إلا ومعك ورقة انفصالنا فأنا لست على استعداد لأن أكمل حياتي مع (مزيكاتي).”

تسمر نوح مكانه وأغضبته الكلمة كثيرا فدخل وأغلق الباب خلفه وقال متمالكا غضبه:

“لقد تكلمت مع حماتي الآن ومع أمي أكثر من مرة وبدأت أستشعر خطأي يا مريم. لقد كان عليّ أن أوازن بين شغفي وسعيي وراءه وبين واجبي تجاهكم. أرجو منك أن تسامحيني وأن تعطيني فرصة أخرى. لقد أنهيت فترة إعدادي وتدريبتي وأنا الآن سأركز فقط على الانتشار وأن أحول ما تعلمته إلى مشروع ناجح عن طريق تكوين فرقة موسيقية وأن أكون مشهورا في...”

قاطعتها مريم بحدة وقالت:

“مشهورا في العزف وراء الراقصات والأفراح والتخوت!!! لم تعد المشكلة الكبرى الآن أنك انشغلت عنا يا نوح. المشكلة أنك ضحييت بعمل مرموق وسمعة طيبة ودخل ممتاز وركضت وأنت فاقد لعقلك تماما وراء شيء ليس له أي مستقبل، وحتى إن كان له مستقبل فأنا لا أقبل أن تذهب ابنتي إلى المدرسة ويسألوني في المقابلة الشخصية عن وظيفتك لأقول لهم أنك عازف لآلة القانون. هل تتخيل ماذا سيكون رد فعلهم ورد فعل المجتمع تجاه ذلك.”

اندهش نوح من منطقتها وقال مستنكرا:

“وماذا في ذلك يا مريم؟ إنه فن راقى ولا عيب فيه أبدا. ثم إن...”

أشارت إليه مريم بيدها أن يتوقف وقامت وواجهته مباشرة قائلة:

“اسمع يا نوح. سأعطيك فرصة أسبوعا واحدا آخر. إما أن تترك هذا العيب الذي تقوم به وإما أن تزورنا المرة القادمة ومعك ورقة الانفصال. ومن فضلك أخرج الآن لأنني أريد أن أستريح قليلا.”

شعر نوح باليأس الكامل بعد كلماتها الأخيرة وهز رأسه مستسلما وفتح الباب ليخرج ويقابل حماته التي كانت واقفة تنتظر خروجه بترقب ونظر إليها وقال بحزن:

“يبدو أنه لا فائدة يا حماتي. لقد أغلق قلب مريم تجاهي تماما.”

سألته حماته بقلق:

“ماذا قالت لك يا بني؟”

“سأذهب الآن يا حماتي ويمكنك أن تتحدثي معها لعلك تستطيعين إيجاد حل لوضعنا.”

قالها نوح ونظر إلى لارا التي غلبها النوم على الأريكة وهي تضم عروستها الجديدة إليها فاقترب منها وقبلها واتجه إلى الباب وقبل أن يخرج التفت ليلقي نظرة أخيرة على ابنته وهي نائمة كالملاك وفي داخله فيضان من الحزن يعتصر قلبه وهو لا يعلم كيف سيستطيع العزف والتقدم بحلمه كما وعد معلمه في وسط كل هذه الظروف القاسية التي تكسر من عزيمة أي إنسان.

“إن الوضع حرج حقا يا صديقي.”

قالها محمود لنوح وهو يقود سيارته ببطء مقتربا من بيت الشرق حيث سيقابل نوح الأستاذ إبراهيم معلم آلة القانون.

“نعم يا محمود أنا حقا لا أدري ماذا سأفعل. لقد أغلقت مريم كل الأبواب في وجهي.”

رد محمود بأسف:

“ليتني أستطيع مساعدتك في هذا الأمر ولكن فعلا القرار صعب... ها قد وصلنا، لا تشغل بالك الآن. فلتركز فقط على هذه اللحظة المهمة التي جئت من أجلها.”

تنهد نوح قائلاً:

“في الحقيقة يا محمود أنا لم أعد أدري هل أنطلق كما نويت وأطلب من الأستاذ إبراهيم المساعدة فيما أنوي عمله أم أنتظر قليلا حتى أقرر ماذا سأفعل مع مريم.”

سكت محمود قليلا ثم قال:

“هل عندك أي نية في التخلي عن حلمك؟”

“هذا من رابع المستحيلات يا محمود. ولكن كلما أفكر أن هناك احتمال أن تضيق أسرتي وأن أبتعد عن ابنتي أعجز عن التفكير.”

ربت محمود على فخذ نوح قائلاً:

“إذا كان من المستحيل أن تتخلى عن حلمك فإذا مقابلتك للأستاذ إبراهيم الآن حتمية ولا غنى عنها ولذلك لا داعي لتأجيلها. هيا بنا يا صديقي.”

قالها محمود وهو يفتح باب سيارته ثم اتجها كلاهما ليدخلا بيت الشرق وما أن دخلا من الباب حتى سأل نوح موظف الاستقبال:

“هل الأستاذ إبراهيم موجود.”

“نعم سيدي إنه في مكتبه. ما اسمك حتى أبلغه؟”

“نوح صالح.”

نهض الرجل من مكتبه عندما سمع باسم نوح وقال:

“أهلاً أهلاً أستاذ نوح، أستاذ إبراهيم بانتظارك. تفضلاً معي.”

“لا عليك أنا أعرف طريقتي.”

قالها نوح وهو يتجه مع محمود باتجاه مكتب الأستاذ إبراهيم وطرق على الباب طرقة خفيفة قبل أن يفتحه ويدخل رأسه قائلاً:

“السلام عليكم معلمي الكبير.”

تهللت أسارير الأستاذ إبراهيم ونهض من خلف مكتبه فاتحا ذراعيه ليضم نوح إليه ويقول:

“أهلا بالعازف الأسطوري. لقد كنت في قمة السعادة عندما اتصلت بي لتعلمني أنك عدت إلى مصر وأنت تريد مقابلتي. لقد أطلت غيابك كثيرا في رحلتك... أهلا أستاذ محمود، تفضلا تفضلا.”

جلس الاثنان على كرسيين أمام المكتب وقال الأستاذ إبراهيم مازحا:

“ماذا تشربان؟ ... أو تأكلان؟ لأن أمامك وقت طويل يا نوح لتحكي لي كل ما حدث معك طوال الستة أشهر أو أكثر الماضية.”

ضحك الجميع ثم قال نوح:

“في الحقيقة لقد كانت بداية الرحلة صعبة جدا. فباران شيروان يعيش في عزلة كاملة ومن شبه مستحيل أن يصل غريب إليه. ولولا توفيق الله تعالى لما استطعت مقابلته أبدا.”

اندهش أستاذ إبراهيم قائلا:

“يا للعجب ولما كل ذلك.”

أخذ نوح يروي خلاصة ما جرى معه في تركيا وكيف تطورت علاقته بمعلمه باران حتى قال:

“وكانت الوصية الأخيرة منه لي هو أن أكوّن فرقة موسيقية من ثلاث آلات رئيسية آلة القانون، الناي، والعود. وطلب مني أن

أقود هذه الفرقة ونعزف ألحانا لم يعزفها أحد بهذه الطريقة من قبل، سواء كانت ألحانا شرقية أم غربية. فلقد تعلمت منه أسراراً كثيرة في استخدام كل إمكانيات آلة القانون وسنستطيع أن نبهر العالم بها إن شاء الله.”

نظر إليه أستاذ إبراهيم وعلى وجهه ابتسامة كبيرة قائلاً:
“رائع. يبدو أنك أصبحت الآن المعلم وأني يجب أن أتعلم منك الكثير. كم أنا سعيد بما حققته يا نوح.”

“العفو يا أستاذي. فلولاك بعد فضل الله تعالى لما وصلت إلى ما أنا عليه اليوم.”

اعتدل أستاذ إبراهيم في جلسته وقال بجديّة:

“حسناً، دعنا نضع ما تريد موضع التنفيذ. اتركني بضعة أيام كي أفكر وأطرح الفكرة على مجموعة من أفضل عازفين الناي الذين تخرجوا من بيت الشرق. أما العود فعلى الرغم من ثقتي بما أقدمه هنا ولكن الحق يقال، لا يعلى على تلامذة نصير شمة ولذلك دعني أجري اتصالاتي وسأحدد لك موعداً لمقابلة أفراد الفريق المقترحين لتروا إن كان بينكم انسجام حقيقي أم أن علينا البحث عن آخرين.”

“رائع. أهم شيء بجانب العزف الجيد هو ...”

قاطعه أستاذ إبراهيم قائلاً:

“الشغف ومشاركتك نفس الحلم، هذا أمر مسلم به.”

“اتفقنا، على بركة الله. سأنتظر اتصالك على أحر من الجمر.”

قالها نوح وهم واقفا فاستوقفه أستاذ إبراهيم قائلا:

“إلى أين أنت ذاهب. لن أتركك حتى تعزف لي مقطوعة ساحرة لأرى كيف تطور مستواك ولعلي أتعلم منك بعض التقنيات الجديدة.”

ضحك نوح وقال:

“على الرحب والسعة أستاذي.”

“دعني أحضر لك آلة القانون الخاصة بي.”

قالها أستاذ إبراهيم ثم نهض ليحضر آلة القانون في حين قال محمود:

“كم أنا مسرور من ثقفتك يا صديقي. كنت في الماضي تتردد كثيرا قبل أن تعزف ولكن يبدو أنك تمكنت من أدائك تماما.”

“لقد أصبحت أنا وآلة القانون كيانا واحدا يا محمود. فلقد تعلمت من باران كيف أنسجم مع الآلة وأعاملها على أنها قطعة من كياني. هذه الحالة من الاتصال والانسجام حتى مع الجمادات تحدث فرقا هائلا في قدرتك وأداءك.”

ما أن أنهى نوح عبارته حتى وجد أستاذ إبراهيم يمد يده إليه بالآلة القانون قائلا:

“من الآن فصاعدا لا تفارق آلة القانون الخاصة بك والتي صنعها لك جدك خصيصا.”

ابتسم نوح وتسلم آلة القانون وأخذ يداعبها ويهمس لها بطريقة أدهشت محمود وأستاذ إبراهيم ثم بدأ بعزف مقطوعة أنا في انتظارك لكوكب الشرق...

لم يستطع محمود أن يطرف بجفنه طوال المقطوعة وكأن ألحان نوح أذابت كل ما بداخله من خوف تجاه أن ينتبه لشغفه وحلمه الخاص هو الآخر. فلقد أخذ نوح إلى عالم رائع من العشق ولمس قلبه كما لم يحدث من قبل.

أما أستاذ إبراهيم فلم تفارق الابتسامة وجهه وأخذ يتمايل مع العزف وكأنه يسمع تغريدا عذبا من طيور في حديقة غناء.

وما أن أنهى نوح العزف حتى نهض أستاذ إبراهيم من مكانه وهو يصفق بحرارة قائلا:

“هذا من أروع ما يكون... إنه إبداع وحالة من العشق ليس لها مثيل. لقد صنع منك باران أسطورة بحق. يا إلهي كم هو مدهش ما سمعته.”

ابتسم نوح ونظر إلى الأرض في تواضع قائلا:

“تلميذك أستاذي العظيم.”

“بل أنت الذي يصح أن تكون أستاذي. حسنا ... أعتقد أنه قد حان الوقت لأطلعك على شيء هام. انتظرنى قليلا.”

ترك أستاذ إبراهيم المكتب بينما نظر نوح إلى محمود ليجده شاردا فقال له:

“ما بك يا صديقي. ألم يطربك عزفي؟”

نظر إليه محمود في حالة من الشرود وقال:

“بالعكس يا صديقي. لقد تأثرت بك كثيرا كأول مرة سمعتك عند عم سعيد وحركت بداخلي أحلامي القديمة ولكن هذه المرة أنت في حالة مختلفة تماما ... لم تؤثر بي فقط بل شحنت من عزيمتي لأسعى وراء شغفي أنا الآخر. هنيئا لك يا صديقي على ما وصلت إليه. أنا ألمس السعادة بقلبي فقط عندما أشاهدك، فما بالك بشعورك أنت. لا يمكن أن تتخلى عن حلمك بأي حال من الأحوال يا نوح ... مهما كانت العواقب يا صديقي.”

فهم نوح ما يقصد فهز رأسه موافقا في اللحظة التي دخل عليهما أستاذ إبراهيم وهو يمد يده إلى نوح حاملا صندوقا مسبعا صغيرا.

ضحك نوح ونظر إلى محمود قائلا:

“الرسالة الرابعة ... هي بنا إلى الأمام. نحن لها.”

قالها نوح وكأنه أصبح واثقا من خطاه مستعدا لأي تحد تحمله له الرسالة. ولكن هل ما جاء في هذه الرسالة سيكون فعلا بالبساطة التي استقبلها نوح أم أنها ستحمل نقلة فارقة أخرى في رحلته.

دخلت سالي إلى غرفة المعيشة حاملة صينية الشاي قائلة
بفرح:

“كم اشتقت لجلسات فك الشفرات والكلمات السرية تلك يا نوح.”

ضحك نوح ومحمود ثم قال الأخير:

“يبدو أن لديك شغفا كبيرا لفك الألغاز.”

ضحكت سالي وهي تضع صينية الشاي على الطاولة وتجلس
على الكرسي المجاور وهي تقول:

“والآن اقرأ عليّ ما جاء في هذه الرسالة يا نوح. دعني أحل لك
هذا اللغز بلمح البصر.”

ضحك نوح وقال بلهجة ساخرة:

“لا أظن أنني بحاجة إليك هذه المرة. فإما أن الأمر سهل وإما أنني
تمرست على فهم لغة جدي.”

“يا لك من ناكر للجميل.”

ضحك الجميع ثم أوقفهم نوح قائلاً:

“حسنا حسنا ... دعوني أقرأ عليكم ما جاء في الرسالة لتؤكدوا لي ما فهمته منها.”

اعتدلت سالي في كرسيها قائلة بمرح:

“كلنا آذان صاغية.”

بدأ نوح بقراءة الرسالة بصوت عال والتي جاء فيها:

عندما تمتلك شغفك، عليك أن تفتخر به أمام العالم
اجعل العالم يرى روعة عالمك السحري الخاص
اجذب قلوبهم وأرههم وأسمعهم ما يهوس عقولهم
أخرج فيض نورك الداخلي ليضيء الظلام ... كل الظلام
ابحث عن كل وسيلة فعالة لتبهر الجميع بعبقرية شغفك
كن في قلب الحدث، أو اصنع الحدث
وعندما تفعل، كلمة السر: المسرح الكبير

“والآن دعوني أشارككم ما فهمته من هذه الرسالة.”

قالت سالي باستنكار:

“إنها واضحة كالشمس هذه المرة. لا تتحلق علينا وتدعي الذكاء.”

“يا محمود أسكت زوجتك وإلا سيحث ما لا يحمد عقباه.”

غطت سالي وجهها تدعي الخوف قائلة:

“يا إلهي، أرجوك لا تقتلني. أنا في غاية الرعب، أنقذني يا محمود.”

ضحك الجميع ثم قال نوح محاولاً أن يضيف بعض الجدية على الجلسة:

“حسناً لتتحدث جدياً الآن. في البداية أنا أتوقع أن جدي يقصد بالمرسح الكبير ذلك الخاص بدار الأوبرا المصرية. وما جاء بالرسالة هو باختصار دعوة لأن أصل للناس بكل الوسائل الممكنة.”

قال محمود:

“أتفق معك تماماً يا صديقي. هذه المرة أكد جدي مرتان على كلمة السر وكأنه يعني هذا المكان تحديداً. فإن من يصل لأن يقدم

حفلا على المسرح الكبير بدار الأوبرا يجب أن يكون بالتأكيد
ذائع الصيت.”

هز نوح رأسه موافقا:

“أتفق معك يا صديقي. لابد أن أكون معروفا بدرجة كبيرة. حتى
الآن لم يسمع أحد عني وعلى ما أعتقد عن أحد من أعضاء
فرقتي التي يسعى أستاذ إبراهيم لتجميعها.”

“بالضبط. ولكن أعتقد أن الأستاذ إبراهيم بعلاقاته يمكنه أن
يرعى حفلا كبيرا في المسرح الكبير ويقدمك من خلاله.”

نظر نوح إلى سالي فوجدها صامتة وشاردة الذهن فقال:

“ما رأيك يا سالي؟ أرى أنك لم تعلقي على الرسالة.”

نظرت إليه سالي وقالت بجدية:

“لا أظن أن رسائل جدك بهذه البساطة والسطحية. هناك أمر بين
السطور لم تلاحظانه.”

تعجب نوح وقال:

“ما هو هذا الأمر.”

ضحكت سالي:

“قبل أن أقول، كم ستدفع مقابل ذلك... غرامة على غرورك. ألم تقل أنك لست بحاجة إلي هذه المرة.”

وكزها محمود مبتسما وقال:

“كفى تهريجا يا سالي. هل هناك حقا ما لاحظته بين السطور.”

رفعت سالي رأسها بتفاخر وقالت:

“تعالوا يا أولاد أعلمكم أصول الفراسة. تأملا معي آخر جملتين ... (ابحث عن كل وسيلة فعالة لتبهر الجميع بعبقريّة شغفك، كن في قلب الحدث، أو اصنع الحدث) ... هنا يكمن السر.”

نظر إليها نوح وكأنه لم يستوعب ما قالت فأكملت قائلة:

“لو افترضنا أن أستاذ إبراهيم لديه علاقات يمكنه من خلالها أن يصل بك إلى العرض على المسرح الكبير، أليس من حقه أن يكون لك أرضية ولو بسيطة يستطيع من خلالها التحدث بثقة عنك و عما تقدمه، أم أنك ستخرجه وتجعله يفاوض من أجل شخص مجهول.”

“أنا حقا لا أفهم شيئا. ماذا تقصدين؟ ماذا عليّ أن أفعل بالتحديد؟”

“أنا أقصد أن آخر جملتين من رسالة جدك تحتوي تأكيدا على أنه يتوجب عليك القيام بصناعة الحدث أو التواجد في قلب حدث ما وأن تستغل كل الوسائل الفعالة للوصول إلى الناس.”

قال نوح بسخرية:

“شكرا لكِ لقد فهمت كل شيء الآن.”

“أنا أعرف أن حدود عقلك الضيقة لن تستوعب هذا الكلام العميق.”

قال نوح بضيق:

“عدنا للمزاح مرة أخرى.”

ضحكت سالي ثم قالت:

“ها هي اقتراحاتي العملية لتطبيق رسالة جدك. أولا عليك أن تتواجد على أكثر مواقع التواصل الاجتماعي شهرة. وأقترح أن تبدأ بصفحة على الفيس بوك، وأن تصنع لفرقتك ماركة مسجلة وتصور الفرقة مع مصور محترف. ثم تقوم بتسجيل فيديوهات بشكل احترافي وجودة عالية وأنتم تعزفون بأسلوب فريد أغان مختلفة وساحرة ثم تضعوا هذه الفيديوهات على الصفحة. هذا ما يخص الجملة الأولى والتي تقول (ابحث عن كل وسيلة فعالة لتبهر الجميع بعبقرية شغفك). عندما تتواجد على الانترنت ومواقع التواصل الاجتماعي ويكون لك حضور بشكل أو بآخر سيفخر بك الأستاذ إبراهيم وهو يتحدث عنك أمام المسؤولين عن المسرح الكبير.”

“بدأت أفهم ما تقصدين، ولكن ماذا عن الجملة الثانية؟”

“الإعلام يا عزيزي. وهذا ما يجب أن تفكر فيه. فالإعلام يختص بتغطية الأحداث إما أن يكون في قلبها أو يصنعها. ولذلك عليك أن تفكر بفكرة جديدة ومختلفة تجذب إليك الإعلام وتتيح لك الظهور في أكبر القنوات التليفزيونية والإذاعية. عندها فقط سيكون مكانك الطبيعي على المسرح الكبير.”

لمعت عينا محمود قائلا:

“يا لك من عبقرية، أنا لا أعشقتك من فراغ.”

لم يعلق نوح وظهرت على وجهه علامات القلق فقال محمود:

“ما بك يا صديقي؟”

“معك كل الحق فزوجتك عبقرية فعلا، ولكن لن أستطيع أبدا أن أقوم بذلك. فشغفي هو آلة القانون وما تحدثتِ عنه يا سالي يحتاج إلى شركات تسويق ضخمة ولا يمكنني أن أصنع ذلك وحدي... بل لا أستطيع على الإطلاق. فمعلوماتي عن التسويق محدودة جدا.”

أجابت سالي بثقة:

“لا تقلق. فقط أترك لي نفسك واعتبرني منذ الآن مسؤولة العلاقات الخارجية والتسويق لفرقة ... صحيح ماذا سنتسمى الفرقة؟”

لم يجب نوح وشرذ بذهنه وشعر بالتوتر الشديد فهو لم يعتد الظهور أمام الناس ومواجهة الأضواء لهذه الدرجة. لقد حلم أن يجوب العالم بألته التي يعشقها ولكن يبدو أنه لم يدرك أنه كي يفعل ذلك لابد أن يتغير كثيرا ويعتاد على أمور لم يتخيل أنه سيقوم بها من قبل.

“أمي تعالي بسرعة ... بسرعة يا أمي. يا جدتي تعالي بسرعة، تعالوا جميعا.”

قالتها لارا بلهفة وصوت عال وهي تنادي مريم من المطبخ والتي جاءت مسرعة وقالت بقلق بالغ:

“ما بك حبيبتي؟ هل حدث لك مكروه.”

ثم جاءت الجدة قائلة بلهفة:

“خير يا مريم ماذا حدث للارا.”

“أنظري يا أمي ... أبي في التلفاز.”

نظرت مريم إلى التلفاز بدهشة وكأنها لا تصدق ما ترى وجلست بجوار ابنتها لتشاهد نوح يحل ضيفا على واحدة من أكبر البرامج الحوارية المسائية في الوطن العربي والمذاعة الشهيرة تقدمه قائلة:

“معنا اليوم ضيوف غير عاديين. استطاعوا بأنغامهم الساحرة وأسلوبهم الفريد اختراق قلوب الملايين في وقت قصير جدا. إن عدد المشاهدات لفيديوهاتهم على يوتيوب قد قاربت المليون أما المتابعين على صفحاتهم في الفيسبوك فقد تجاوزوا هذا الرقم، وكل هذا في أقل من ثلاثة أشهر. سنتعرف اليوم على قصتهم، كيف بدأوا وكيف استطاعوا أن يصلوا إلى الناس بهذه السرعة وما هي أحلامهم وطموحاتهم للمستقبل. رحبوا معي بفرقة سبعة الموسيقية.”

انطلق تصفيق وصفير حاد من الجمهور الحاضر للحلقة رج الاستديو واستمر قرابة نصف دقيقة كاملة ثم سألت المذيعة نوح قائلة:

“سنبداً معك يا نوح عرفنا بكم وكيف بدأتم.”

“شكرا لهذه المقدمة الرائعة أستاذة منى. لقد التقيت مع أفراد الفرقة حسام وزياد منذ ما يقارب الثلاثة أشهر وعندما تعرفنا على بعضنا وتشاركنا أحلامنا شعرنا وكأن هناك صداقة تجمعنا منذ سنوات فأصبحنا أكثر من الأخوة، كما أننا نتشارك نفس الحلم والرغبة الجامحة لنشر سحر الموسيقى الشرقية في العالم كله. بدأنا نتدرب معا بقيادة أستاذي وعازف آلة القانون الشهير إبراهيم شوقي صاحب بيت الشرق لتعليم الموسيقى والآلات الشرقية تحديدا. وفي الحقيقة هو من رشح لي حسام عازف الناي وزياد عازف العود وتلميذ الأسطورة نصير شمة.”

انتقلت المذيعة بسؤالها إلى حسام قائلة:

“أظن يا حسام أنك أصغر عازف في هذه الفرقة أليس كذلك؟”

ضحك حسام وقال بثقة تسبق سنه:

“نعم. عمري ١٨ عاما، ولكن عشقي للناي ليس له حدود. بدأت أتدرب عليه منذ خمس سنوات ولم يفارقني منذ ذلك اليوم وأصبح جزء مني.”

“ممتاز. وأنت يا زياد جئت من مدرسة شهيرة جدا لتخريج أعظم عازفي العود في الوطن العربي. لماذا قررت الانضمام للفريق.”

ابتسم زياد لسؤالها وأجاب قائلا:

“معك حق. فمدرسة نصير شمة تخرّج دائما عازفين مبدعين وأنا أعتبر أحد أقرب تلاميذ الأستاذ نصير له ولم أتخيل أن أعزف في فرقة مستقلة عنه مطلقا. ولكن عندما قابلت نوح وسمعت قصته وحلمه وما ينوي أن يقوم به من خلال هذه الفرقة لم أستطع أن أرفض هذه الفرصة فوافقت فورا.”

توجهت المذيعة إلى نوح قائلة:

“إذا أنت يا نوح تعتبر قائد الفريق.”

“كلنا قادة من خلال شغف كل منا لآلته ولكن نعم أنا الذي سعيت لتكوين الفريق وساعدني أستاذ إبراهيم ووقفنا الله جميعا لبعضنا فكما يقال الطيور على أشكالها تقع.”

ابتسمت المذيعة وسألت نوح قائلة:

“ما السر وراء تسمية الفريق اسم سبعة في حين أنكم ثلاثة أفراد فقط؟ أم أن هناك أفراد آخرين تسعون لجذبهم إلى فرقكم.”

ضحك نوح وقال:

“لقد اخترنا هذا الاسم لكي تسألني ويسألنا الجميع هذا السؤال.”

تعجبت المذيعة وسألت:

“كيف ذلك؟”

“في الحقيقة أردنا من خلال هذا الاسم الذي لا يتماشى مع عددنا أن نلفت النظر لوصية جدي الذي كان السبب في كل ما قمنا به ومن عنده بدأت القصة كلها.”

ظهر على وجه مريم الضيق عندما سمعت هذا الجزء في حين سألت المذيعة:

“يبدو أن هناك قصة عجيبة وراء بداية الفرقة سبعة ولكن سنكتشف التفاصيل بعد هذا الفاصل الإعلاني. ابقوا معنا.”

قالت لارا بسعادة بالغة:

“هل رأيتِ يا أمي. أبي أصبح مشهورا... أنا سعيدة لأنني سأكون ابنة رجل مشهور.”

تعجبت مريم من قدرة لارا التي تجاوز عمرها الثلاث سنوات بقليل أن تقول مثل هذا الكلام ولم تستطع الإجابة ... فقط ضمتها إليها وجلست منتظرة الفقرة الثانية والتي استغرقت أكثر من ربع ساعة ... فيبدو أن المعلنين قد تنافسوا من أجل التواجد على الشاشة مع هذه الحلقة تحديداً.

“عدنا معكم مرة أخرى والفرقة سبعة ... نوح وحسام وزيايد. توقفنا قبل الفاصل عند قصة تسمية الفريق وقلت لي يا نوح أنها بدأت مع جدك.”

“صحيح... بدأت القصة بحلم راودني استمر سبعة أيام كاملة بعد وفاة جدي رحمه الله...”

وبدأ نوح يسرد القصة باختصار متحدثاً عن رسائل جده والرقم سبعة الذي تكرر كثيراً وعندما انتهى تنهدت المذيعة قائلة:

“يا لها من قصة عجيبة حقاً.”

ثم توجهت لزياد متسائلة:

“ما الذي دفعكم للنزول إلى الشارع في أماكن كثيرة وبعضها معروف بازدحامه ... فلقد عزقتم كثيراً في شارع المعز وأماكن مختلفة في وسط البلد وفي محطات مترو الأنفاق وغيرها. من صاحب هذه الفكرة؟”

ضحك زياد قائلاً:

“إنه حسام ... أصغرنا سنا وأكثرنا جرأة وجنونا. فلقد اقترح أن نقوم بشيء غريب كي نصل للناس بسرعة ونلفت الأنظار. وفعلا أخذ الناس يصورون عزفنا بهواتهم المحمولة وبدأت الفيديوهات تنتشر على مواقع التواصل الاجتماعي بشكل غير معقول. في نفس الوقت اهتمنا كثيرا بظهورنا بشكل ملفت على فيس بوك ويوتيوب. فابن عمي يمتلك شركة تسويق الكتروني وقام بمساعدتنا كثيرا بالظهور بهذا الشكل الاحترافي وتسجيل الفيديوهات بجودة عالية.”

“ممتاز ولكن ألم تتعرضوا للمضايقات من الناس أو من أفراد الأمن.”

أجاب حسام قائلا:

“لقد توقعنا أن يحدث هذا ولذلك طورنا طريقة غير تقليدية لعزف أغنية (حلوة يا بلدي) فعندما يقترب الأمن نبدأ بعزف الأغنية ويبدأ الناس بالتفاعل معنا ويبتسم أفراد الأمن ويتركونا نكمل العزف. وأحيانا أخرى لم يتأثروا بها وأمرونا بترك المكان وفعلا ذلك بهدوء ودون تعنت. ولكن في الغالب كنا نجد تفهما كبيرا من أفراد الأمن الحمد لله. ولحسن حظنا أن لقطات دخول أفراد الأمن تجعل الناس يبدئون بالتصوير ظلنا منهم أن هناك أزمة كبيرة ستحدث وذلك ساعد في انتشار اللحن والتوزيع المميز الذي ابتكرناه للأغنية.”

“رائع. فلنستمع الآن لأغنية حلوة يا بلدي من فرقة سبعة.”

بدأ الثلاثة بعزف الأغنية بألحان وأسلوب لا يوصف. عندما تنتظر لكل واحد منهم تجده في حالة عشق يصعب وصفها مع آتته وبينهم انسجام نادر الوجود يجعل لأنغامهم سحرا خاصا يأخذك لعالم من الجمال اللامحدود.

أنهى الفريق الأغنية وسط تصفيق حار وانبهار من المذيعة التي قالت:

“هذا شيء لا يصدق. لم أسمع شيئا بهذه الروعة في حياتي.”

استمر الحوار بينهم نصف ساعة أخرى غلب عليها عزفهم لمقطوعات غربية وشرقية مشهورة جعلت كل من في الاستوديو في حالة استثنائية من الطرب.

“لقد مر الوقت سريعا على واحدة من أفضل حلقات برنامجنا. ونعدكم أن يكون الفريق سبعة معنا قريبا مرة أخرى لكي نستمتع بالمزيد من عزفهم الذي لا يمكن أن يوصف.”

وما أن أنتهى البرنامج حتى قالت الجدة:

“الحمد لله أنك استجبت لي ولم تصري على رغبتك بالانفصال. كما قلت لك زوجك يحبك وعليك الصبر قليلا.”

ساد الصمت على الجميع بينما جلست مريم شاردة الذهن غير مصدقة لما رآته. فلقد شاهدت زوجها بصورة لم ترها ولم تتخيلها من قبل. ويبدو أنها قد بدأت تدرك ما كان يعنيه عندما

حاول أن يفهمها قيمة سعي الإنسان وراء شغفه وما يحدثه ذلك من تأثير على حياته كلها.

في ترقب وتوتر شديدين جلس نوح وفرقته خلف كواليس المسرح الكبير بدار الأوبرا يحاولون السيطرة على دقائق قلبهم المتسارعة قبل أن يأتي إليهم أستاذ إبراهيم مسرعا وهو يقول:

“استعدوا يا شباب ستدخلون المسرح بعد عشر دقائق من الآن.”

لم يردوا وأخذوا يتبادلون النظرات وعلى وجههم علامات خوف شديد فقال أستاذ إبراهيم بحزم:

“مالي أرى الخوف يملأ قلوبكم، هذه هي اللحظة التي حلمتم بها منذ أول يوم اجتمعتم فيه، هذا هو الحلم الكبير. لا أريدكم أن تخافوا من الجمهور أو من رد فعلهم، كل ما أريده هو أن تدخلوا المسرح وتستمعوا بكل لحظة. فقط استمعوا، استمعوا بأنغامكم، بالآتكم، استمعوا باللحظات الفريدة لوجودكم على أعظم مسارح الأوبرا، كونوا في حالة انسجام تام مع الموسيقى ومع بعضكم. وكلما أزادت متعتكم على المسرح كلما كان العزف خارجا من قلوبكم قبل أناملكم وكلما وصلتم أكثر لقلوب الجمهور.”

صمت برهه ثم قال بقوة:

“هل أنتم مستعدون لتحقيق الحلم الكبير يا شباب؟”

سكت الجميع للحظات ثم قال نوح بلهجة تبتث الثقة في النفوس:

“على بركة الله. لقد اجتهدنا كثيرا ولن يخيب الله مجهودنا. هيا بنا لننقل الجمهور إلى عالمنا السحري الخاص وندخلهم إلى عالم الأنغام الساحرة. هيا فلنري العالم روعة ما نقدم.”

قالها نوح وهو يتقدم لينظر من خلف الستار ويرى ذلك المشهد المهيب ثم يلتفت لفرقة قائلاً:

“يا إلهي ... تعالوا انظروا إلى هذا المشهد الرائع. إن المسرح ممتلئ عن آخره. لن نخيب اليوم أمل الجمهور وسنعزف ألحان العمر.”

انضم إليه أستاذ إبراهيم وباقي أعضاء الفريق ليشاهدوا مشهدا مهيبا لألف وثلاثمائة شخص يمثلون السعة الكاملة للمسرح وهم يجلسون في ترقب وحماس منتظرين ظهور الفرقة سبعة.

وبينما هم كذلك جاء أحد المسؤولين عن تنظيم الحفل قائلاً:

“باقي خمس دقائق.”

نظر أعضاء الفريق لبعضهم البعض وهزوا رؤوسهم تأكيدا لاستعدادهم الكامل ثم قال حسام عازف الناي وأصغرهم سنا:

“سنشعل المسرح اليوم. فلنجعلها ليلة لا تنسى.”

التفت نوح لأستاذ إبراهيم مضيفاً:

“ولن نخذلك يا أستاذ إبراهيم. فلولا مجهودك واتصالاتك المكثفة بعد توفيق الله لما كنا هنا اليوم.”

“اليوم يومكم يا شباب.”

قالها الأستاذ إبراهيم قبل أن يُخرج نوح هاتفه المحمول ويضغط على شاشته قائلاً:

“سأجري اتصالاً أخيراً قبل اغلاق الهاتف.”

وضع الهاتف على أذنه في انتظار الرد الذي جاء قائلاً:

“نوح كيف حالك يا صديقي. كلنا شوق لسماحك اليوم.”

“محمود هل ترى المسرح كيف هو ممتلئ عن آخره؟ أدعو لي يا صديقي.”

“موفق إن شاء الله. أنا لا أطيق الانتظار لرؤيتكم وسماح أنغامكم الرائعة.”

“ألم ترى مريم؟ هل أبلغتها بالحفل؟”

سكت محمود قليلاً وقال بمرح:

“نعم أبلغتها وإن لم تأتي فهي الخاسرة. ركز فقط على حلمك اليوم يا نوح. اليوم يومك يا أسطورة آلة القانون.”

شعر نوح بالحزن فقد كان يتمنى أن ترى مريم وابنته ما وصل إليه من شهرة وإنجاز فاق كل ما كان عليه في الماضي.

“هيا لقد حان الوقت لتدخلوا المسرح يا شباب.”

قالها أحد منظمي الحفل مشيرا إلى الفريق بالدخول. فتقدم نوح ووقف عند الأستاذ إبراهيم قائلا:

“سترى منا ما لن يصدقه عقلك.”

ثم غمز بعينه وهو ينظر للشباب وكأنهم أعدوا شيئا سيفوق كل التوقعات.

أخذ الثلاثة مكانهم على المسرح استعدادا لفتح الستار ولم يلبثوا إلا دقيقة حتى بدأ الستار يفتح بالفعل وسط تصفيق حاد رج أنحاء المكان فقام نوح وفرقته ليحيوا الجمهور ويشكروهم على حفاوة الاستقبال ثم عادوا لأماكنهم مرة أخرى لتتطفئ جميع أضواء المسرح الكبير عدا تلك المسلطة عليهم في مشهد مليء بالسحر والمهابة في آن واحد..

كانوا يجلسون بشكل نصف دائري يتوسطهم نوح بآلة القانون البيضاء المميزة وعن يمينه زياد عازف العود وعن شماله حسام عازف الناي، ثم أشار نوح بإصبعه وبدأوا بالعزف.

في البداية ظهر ارتعاش أناملهم الذي يعكس توترهم حتى أن القلق قد بدأ يتسلل لقلب سالي ومحمود ولكن سرعان ما اندمجوا بعالمهم الساحر ونسوا أمر المئات الذين يملؤون القاعة وذهبوا بعيدا مع لحنهم المفضل (حلوة يا بلدي) والذي بدأوا به لكسر توترهم وكسب الجمهور...

توالت الأنغام والمقطوعات وأخذت تتدفق بعذوبة وانسيابية كشلال صافي خطف قلوب وأسماع الجميع ليأخذهم إلى مكان آخر، كما ساهم الظلام في أن يتخيل كل فرد من المئات المتواجدين نفسه في أروع مكان يحلم به ليعيشه وكأنه واقع يستطيع لمسها.

كان التصفيق مدويا بين كل مقطوعة والأخرى واستمر العزف لمدة ساعة كاملة عزف فيها الفريق الكثير من الأغاني الشرقية الخالدة وقد تمنى الحضور لو ظل الفريق سبعة يعزف للأبد.

مضت الساعة الأولى سريعا بعدها أنيرت أنوار المسرح للاستراحة وأغلق الستار ودخل نوح وفرقته للكواليس ليستقبلهم أستاذ إبراهيم وعلى وجهه علامات التأثر قائلا:

“أنتم اليوم انضمامكم لقائمة أروع من عزف على هذا المسرح العريق. ولن أبالغ إن قلت أن هذا المسرح لم يشهد مثيلا لروعته عزفكم.”

بدت الفرحة على وجوه الشباب وجلسوا يتبادلون التهاني ثم قال نوح:

“بقي الجزء الثاني من الحفل والمفاجأة الكبرى التي أعددناها للحضور. استعدوا يا شباب.”

“أي مفاجأة؟ هل حضرتم شيئاً مختلفاً عما تدرّبنا عليه سوياً؟”

قالها الأستاذ إبراهيم في تعجب فرد زياد مبتسماً:

“انتظر وسترى أستاذنا العزيز.”

مرت ربع ساعة جاء بعدها منظم الحفل ليطلب منهم العودة لأماكنهم مرة أخرى ثم فتح الستار وسط تصفيق حار استمر لدقيقة كاملة، ثم اقترب نوح على الميكروفون وقال:

“شكراً لكم سيداتي وسادتي على تشريفكم لنا الليلة. اسمحوا لنا في الجزء الثاني من الحفل أن نقدم بعض الألحان الغربية والتي لم تعزف من قبل على آلات شرقية على الإطلاق. أرجو أن تنال إعجابكم.”

ثم أشار بإصبعه وبدأ الفريق بعزف ذلك اللحن الشهير لفيلم تايتانك بأسلوب وإعادة توزيع شرقي يفوق الخيال مما جعل مشاعر كل المستمعين بمن فيهم الأستاذ إبراهيم عبارة عن خليط من الانبهار والذهول والاستمتاع، لدرجة جعلت الجمهور لم يكتبي بالتصفيق بل وقفوا على أرجلهم مصفيقين بشكل متواصل قرابة الدقيقتين مما جعل دموع التأثر والفرح تجاهد لتتساب من عيني النوح الذي ظل يردد في سره (الحمد لله الحمد لله الحمد لله)...

استمر نوح ورفاقه بالعزف لخمس وأربعين دقيقة أخرى كان فيها الجميع بقمة الاستمتاع بالألحان الغربية المدمجة بتوزيع شرقي فريد أضاف لها روحا مميزة. ثم ختم نوح ورفاقه الحفل بمقطوعتهم الشهيرة (حلوة يا بلدي) كما بدأوا..

وفور انتهائهم تنهد ثلاثتهم وأخذوا نفسا عميقا ثم قاموا وأمسكوا بأيدي بعضهم البعض ليحيوا الجمهور الذي نهض مرة أخرى من مقاعده في تصفيق حار وصفير وكلمات تشجيعية لم تتوقف حتى بعد إغلاق الستار..

أغلق الستار وعادوا للكواليس ليستقبلهم أستاذ إبراهيم بذراعيه المفتوحتين وضمهم إليه جميعا ثم سجد الجميع شاكرين الله على هذا النجاح الذي ليس له مثيل وقال وهو في حالة فرحة غامرة:

“سنقوم بتنظيم حفل كبير في بيت الشرق للاحتفال بهذا النجاح العظيم.”

ابتسم نوح بارتياح وقال:

“الحمد لله رب العالمين. شكرا لكم يا شباب لقد حققنا أول خطوة كبيرة في حلمنا. الخطوة القادمة هي العالمية بإذن الله. فبمجموعة الأغاني الغربية التي أعدنا توزيعها وعزفها على آلاتنا الشرقية سنقوم بجذب انتباه الغرب إن شاء الله.”

صاح الجميع:

“إلى العالمية بإبداعاتنا الشرقية.”

“حسنا سأذهب الآن فأنا بحاجة ماسة إلى النوم فلم أنم منذ أسبوع تقريبا.”

قالها نوح ضاحكا وهو يشير بيده ليودع الفريق ولكن في داخله حزن عميق على غياب ابنته التي تمنى أن ترى أباه في قمة مجده وشهرته في هذا اليوم الهام في حياته.

خرج نوح من باب المسرح الخلفي حيث ساحة انتظار السيارات ليجد محمود يتصل به وقال الأخير فور فتح الخط:

“لم أشعر بالفخر في حياتي كما أشعر به اليوم، فأنا صديق شخصي لأشهر عازفين العالم. أنا في قمة السعادة من أجلك يا صديقي وسالي تقول لك (والله وعملوها الرجالة).”

ضحك نوح وقال:

“شكرا يا صديقي فلولا دعمكم لما كنت هنا اليوم.”

“أين أنت الآن. هيا بنا نحفل، فسالي ستدعوننا جميعا على العشاء الفاخر.”

“أنا الآن في ساحة الانتظار. أشكر لي سالي ولكني حقا مجهد جدا وبحاجة للنوم فلم أنم منذ أسبوع من أجل الاستعداد للحفل.”

رد محمود بلهجة متعاطفة وكأنه فهم صديقه:

“حسنا يا صديقي. استرح اليوم وسأصل بك غدا لتحديد موعد للاحتفال، فلا يجب أن نفوت عرض سالي النادر.”

ضحك نوح وما أن أغلق الهاتف حتى قال محمود لسالي:

“لا بد وأنه حزين لغياب مريم وابنته. لقد كان يأمل أن تحضر وترى إنجازه الكبير فتقرر العودة إلى بيتها.”

قالت سالي بحنق شديد:

“مسكين حقا صديقك هذا، فالتضحية كبيرة. أسرته من أجل حلمه. تبا لمريم ... أي زوجة هذه.”

وفي هذه الأثناء توجه نوح للسائيس الذي ابتسم ابتسامة عريضة وقال:

“أهلا أستاذ نوح، أتمنى أن تكون وفقت اليوم. تفضل مفتاح سيارتك.”

أخذ نوح المفتاح قائلاً:

“الحمد لله لقد كانت حفلة رائعة.”

اتجه نوح لسيارته وفتح الباب ليضع آلة القانون على المقعد الخلفي ثم أغلق الباب وفتح بابه الأمامي وما أن دخل السيارة حتى صعق، فقد لمحت عيناه صندوقاً مسبعاً صغيراً على المقعد المجاور له.

“يا إلهي! كيف جاء الصندوق إلى هنا؟!!”

خرج نوح من سيارته وأخذ يبحث عن السائس ليسأله ولكنه
تلاشى وكان لم يكن له وجود من الأساس..

عاد مرة أخرى وهو لا يصدق ما يرى وعقله يسأل بتوتر عن
الذي وضع له الصندوق في السيارة وترى ماذا ستحمل الرسالة
الجديدة التي بداخله من مفاجآت.

“يا إلهي! لن أستطيع النوم لأيام أخرى قادمة!!”

قالها نوح وهو يتصل بمحمود ليعلمه بهذه المفاجأة الغير متوقعة.

“لا أحد يستطيع رفض دعوة عشاء من سالي. لم يكن
هناك داع لادعاء التمتع.”

قالتها سالي بسخرية عندما رأت نوح يتجه نحو الطاولة التي
كانت تجلس عليها مع محمود في ذلك المطعم الفاخر في أحد
أشهر الفنادق المطلة على النيل.

قام محمود وفتح ذراعيه ليضم نوح ثم قال:

“ألف مبروك يا صديقي ... كان حفلا أسطوريا ولقد أبدعت أنت
وفرتك بصورة تفوق الخيال.”

هز نوح رأسه شاكرًا ثم جلس وعلى وجهه علامات الإجهاد ووضع الصندوق المسيع الصغير الذي وجده في السيارة على سطح الطاولة وقال مرهقا:

“لقد بدأت أشعر بالإجهاد الشديد. صندوق جديد وتحذ جديد وتضحيات جديدة. إلى متى يا ترى؟”

قالت سالي مستنكرة:

“ما هذه الكآبة التي تتحدث بها. يجب أن تفرح بل من المفترض أن تكون أسعد الناس الآن بإنجازك التاريخي وتحقيقك لحلم كبير لطالما حلمت به. لم الكآبة؟ ... ألا تستطيع أن تبتهج لبضع ساعات.”

لم يجب نوح ونظر إلى الأرض بينما سأل محمود محاولا تغيير دفة الحديث:

“ألم تعرف من الذي ترك لك هذا الصندوق يا نوح؟”

أشاح نوح بيده وبدا الضيق على وجهه وهو يقول:

“لم أعرف. لقد اختفى السائس تماما وكأنه (فص ملح وداب). لقد مللت من هذه الألغاز. كل مرة تتعقد الأمور أكثر.”

نظرت له سالي مستنكرة وقالت بغیظ شديد:

“يا إلهي، أنا لا أصدق ما أسمع! ما المشكلة في الموضوع. أنت الآن في رحلة صعود مستمرة وتتحرك نحو حلمك بخطوات ثابتة ولا بد أن تكون مستمتعا بكل لحظة وبكل إنجاز. لماذا ترى الحياة بهذا السواد. إن كنت مكانك لانتظرت رسالة جديدة من جدي لأعرف ما هي الخطوة القادمة لتحقيق الإنجاز الأكبر.”

رفع نوح رأسه ونظر إلى سالي قائلاً:

“معك حق يا سالي ولكني ...”

قاطعته سالي قائلة بغضب:

“ولكنك كنت تتمنى أن تحضر مريم لتراك وتعلن أسفها وتعود إلى منزلها. أنا لا أعلم لماذا تتشبهت بهذه المرأة التي لم تؤمن بك وبحلمك لحظة واحدة. لماذا لا تتساها و...”

قاطعها محمود قائلاً بحدة:

“سالي ... لا داعي لهذا الكلام. نوح ليس بحالة تسمح أن نفتح هذا الموضوع الآن. فلنهدأ جميعاً ولنختر ماذا سنأكل ثم نقرأ الرسالة لنرى ما جاء فيها هذه المرة.”

سكنت سالي وشعرت بالحرج بينما قال نوح:

“أنا أعتذر لكم لإفسادي عليكم متعة هذه الليلة وسعادتكم بنجاحي. ولكن يا سالي ليست مريم هي السبب في ضيقي. أنا حزين لأنني كنت أتمنى أن ترى لارا ما وصل إليه والدها وأن تفتخر بي أمام

الجميع، ولكن سيحدث ذلك قريباً إن شاء الله. والآن دعوني أختار
أغلى الأطباق لأستغل هذه الدعوة المجانية.”

قالها نوح محاولاً أن يعيد الروح المرححة للجلسة وابتسمت سالي
ومحمود وأخذاً يطلبان العشاء من النادل وما أن انتهيا حتى
أمسك محمود بالصندوق وفتحه وأخرج الورقة الصغيرة التي
بداخله وبدأ يقرأ عليهم الرسالة والتي جاء فيها:

عندما يكبر شغفك ستنهك قواك ما لم تستثمر مواردك بعناية

الغي من حياتك كل ما يُنقصها

وأضف لحياتك كل ما يزيدها

تستطيع أن تنجز الكثير بالقليل
فكلما خف حملك ثقل قدرك

البساطة مفتاح السعادة ... والإبداع

كن بسيطاً تنعم بالقليل وأشكر الله تُعطى المزيد

كلمة السر: بيت النوبة

“هذه معجزة! وكأن جدك موجود معنا الآن ويعلم حالك ويوجه إليك هذه الرسالة في وقتها المناسب تماما. عجيب هذا الرجل.”

قالتها سالي وملامح الحيرة والتعجب تملأ وجهها بينما قال نوح:

“بل تقصدين (عظيم هذا الرجل) ... إنني بحاجة شديدة لأن أسمع هذا الكلام الآن. فعلا لقد أثقلت على نفسي كثيرا وكنت أبذل مجهودا مضاعفا في أشياء قليلة الأهمية وكنت أتعامل مع كل شيء وكأنه أهم شيء. والأهم من ذلك أنني كنت قليل الشكر. فكيف لي أن أحزن وقد أكرمني الله بهذا النجاح الكبير هذه الليلة.”

غمزته سالي قائلة:

“وقال أيضا (الغي من حياتك كل ما يُنقصها) ... هل فهمت ذلك.”

سكت نوح وهز رأسه مؤيدا بأسف في حين قال محمود بسرعة:

“هل لفتت نظرك كلمة السر؟ هل تعلم ما المقصود ببيت النوبة؟”

رفع نوح رأسه وفكر قليلا قبل أن يقول:

“أعتقد أنني أعرف المقصود. هناك بيت في النوبة اشتراه جدي منذ فترة كبيرة وفي يوم تخرجي من الكلية كتب جدي البيت بإسمي وأهداه لي وكان يذكرني دائما أن أعتني بهذا البيت وألا

أبيعه مهما حصل. إنه من أروع البيوت ويطل على أروع مشهد
يمكن أن تراه عينك.”

لمعت عينا سالي وهي تقول:

“أنا أعشق النوبة، لن أسمح لكما بالذهاب من دوني”

ابتسم نوح وقال:

“بالتأكيد ... فهناك ستتعلمين بحياة هادئة وراحة بال ليس لها
مثيل. ويبدو أن جدي أراد أن آخذ استراحة لفترة وأن أعيد
التوازن في حياتي وأرتب أوراقي من جديد لأرى ما عليّ
التخلص منه وما عليّ أن أبقيه أو أضيفه لحياتي حتى أستطيع
الاستمرار في التقدم.”

قال محمود مؤيدا:

“بالضبط يا صديقي. أنت فعلا بحاجة إلى استراحة. فأنت تتحرك
بلا توقف منذ فترة طويلة. ولقد تحملت الكثير حتى وصلت إلى
هذه النقطة.”

قالت سالي رافعة اصبعها وكأنها تلفت نظرهما لأمر هام:

“نحن ... وليس أنت فقط ... أن أيضا بحاجة إلى استراحة.
سأعد الحقائب من الليلة ولننطلق غدا إلى النوبة!”

ضحك نوح وقال:

“بعد غد إن شاء الله. فأنا بحاجة إلى النوم والراحة وسأذهب غدا بعد أن أستيقظ مباشرة إلى أمي لأخذ مفتاح بيت النوبة. سأتصل بك يا محمود عندما أكون جاهزا.”

أحضر النادل الشوربة في هذه اللحظة فقالت سالي:

“رائع. رائع. رائع. عشاء شهى ورحلة لأرض السلام الداخلي. نحن في حلم جميل. الحمد لله.”

ضحك الجميع وأخذوا يستمتعون بالعشاء الفاخر المقدم لهم وطوال الجلسة كان نوح يفكر في جملة جده التي قال فيها (الغي من حياتك كل ما يُنقصها).

هل عليه حقا أن يتخلص من علاقته بمريم بعد أن أصبحت العائق الوحيد أمام سعادته الكاملة أم أن هناك ما يمكن أن ينقذ هذه العلاقة في القريب العاجل؟

(٦)

“يا له من منظر خلاب. أنا أريد أن أعيش هنا بقية حياتي، اللعنة على القاهرة!”

قالتها سالي وهي تنظر إلى النيل الأزرق الصافي من شرفة المنزل النوبي الذي يمتلكه نوح. ذلك المنزل الذي يحتوي على أثاث بسيط ويتمتع بديكور تقليدي مع ألوان ساطعة ومتباينة.

ابتسم نوح ونظر إلى الأفق وكأنه يسترجع ذكريات الماضي وقال:

“لقد كدت أنسى هذا المنزل لولا الرسالة الأخيرة من جدي. لا أدري لماذا نحنق أنفسنا بالعيش في القاهرة بينما أرض مصر مليئة بالأمكن التي تبعث البهجة والسعادة في النفس.”

أخذ محمود نفسا عميقا ليستنشق الهواء النقي ثم قال:

“معك حق يا صديقي. المكان هنا قطعة من الجنة وأهل النوبة من أطيب الناس. ولكن المشكلة في التعليم والصحة والمصالح والأشغال التي تتمركز كلها في القاهرة.”

ردت سالي بسخرية:

“والله إن قلة هذه الأشياء أفضل من كثرتها. العيش في القاهرة يمثل سببا أساسيا للمرض الذي نصاب به سواء من ضغط عصبي أو أمراض بدنية أخرى بسيطة كانت أو خبيثة، ثم هل تعتقد أن التعليم سيثري نفوس وعقول أولادنا أكثر من حياتهم وسط هذه الطبيعة الخلابة. لو كان عندي طفل لعلمته هنا خصوصا أن التعليم عبر الانترنت أصبح متاحا للجميع وغير مرتبط بمكان معين. أما عن المصالح والأشغال فأعتقد أن فرص العمل الحر لا حصر لها، كما أن الحياة البسيطة التي ستعيشها هنا ستجعلك تستمتع بالقليل ولن تحتاج إلى الأموال الطائلة التي تنفقها دون فائدة لمحاولة تحسين جودة حياتك في القاهرة. هنا تستطيع أن تحيا بجودة حياة فوق الوصف بأقل القليل. يا ليت الناس يعقلون ويغيرون عاداتهم التي خنقتهم كرائحة عوادم سيارات القاهرة.”

ابتسم نوح قائلا:

“يبدو أن شغفك هو تحفيز الناس للحياة ببساطة وسعادة يا سالي. أنت دائما تعطيني دفعة للأمام. ليت محمود يستجيب.”

ضحك محمود ورد قائلا:

“لقد بدأت بالفعل ولكن بخطوات صغيرة جدا. لقد اشتريت كتابا عن زراعة النباتات المنزلية وها أنا أسترجع شغفي بالزراعة رويدا رويدا.”

فرح نوح وقال:

“رائع يا صديقي. لم تخبرني بذلك من قبل.”

أجاب محمود بحرج:

“في الحقيقة لقد قمت بذلك قبل السفر إلى هنا بيوم واحد. لقد كان حفل الأوبرا الضربة الأخيرة لكل المخاوف التي سكنت بداخلي. عندها قلت لنفسني (عليك أن تبدأ يا محمود ولا تشغل بالك بالخطوات القادمة التي لا يعلمها إلا الله. فقط عليّ أن أبدأ بالخطوة الأولى وأن أسأل الله أن يفتح عليّ وييسر لي باقي الخطوات.”

“نعم ما فعلت يا صديقي. اتبع رسائل جدي وستصل إلى نتائج مبهرة بإذن الله.”

قالت سالي بسخرية:

“حسنا كفانا كلاما تحفيزيا. أنا جائعة جدا. هل يوجد هنا ما يمكن أن نأكله.”

“فندق اناكاتو يقع بالقرب من هنا. لقد ذهبت مرة مع جدي إلى هناك لتندوق الوجبات الإقليمية المميزة في المطعم بينما نستمتع بالرقصات والموسيقى النوبية التقليدية.”

قفزت سالي مبتهجة وقالت:

“ممتاز هيا بنا. كم أتشوق لأرى وأستمع بكل ركن في هذه البلدة الخالية.”

أوقفها محمود قائلاً:

“لا أريد أن أفسد عليكِ فرحتك يا سالي ولكننا هنا في مهمة.
أنسييتي أننا جئنا لنفك شفرة كلمة السر في رسالة جد نوح
الأخيرة.”

نفخت سالي بإحباط فرد نوح مسرعاً:

“لا عليك يا محمود فلا داعي للعجلة. سيأتي الوقت المناسب
ولكن علينا أن نتنزّه قليلاً ونأكل ويمكننا أن نجلس في المساء
لنفكر في كلمة السر.”

هزت سالي رأسها مؤيدة بشدة وقالت:

“دائماً أتغنى بحكمتك يا نوح. نعم الرأي رأيك.”

ضحك الجميع وهم يخرجون من الشرفة باتجاه الباب وكان
آخرهم محمود الذي خرج ببطء ونظره يجوب المكان الجذاب
ببساطته وتراثه الفريد ثم وقف فجأة ونادى على نوح الذي كاد
هو وسالي أن يصلا إلى الباب قائلاً:

“نوح. انتظر. أنظر هنا.”

أشار محمود بيده على لوحة معلقة على الحائط عليها صورة
شخصين يحتضنان أولاد وبنات صغار وهم يضحكون ببراعة
وتلمع أسنانهم من وراء سمرة وجوههم الجميلة.

عاد نوح لينظر إلى الصورة وابتسم قائلاً:

“رحم الله جدي. كان يأتي إلى هنا كثيراً ويقوم بأعمال خير عديدة لأهالي النوبة وأطفالهم. ولكني لا أعلم من يكون ذلك الشخص الذي يقف بجانبه في الصورة. ولكن من ملامحه أعتقد أنه من أهالي أسوان أو النوبة.”

لم يرد محمود ولكنه نقر عدة مرات بإصبعه على الزاوية اليمنى في أسفل الصورة وهو يبتسم ابتسامة النصر.

نظر نوح إلى حيث أشار محمود في الصورة فارتد مندهشاً بينما قالت سالي في تعجب بالغ:

“يا لك من قوي الملاحظة. إنه الرقم سبعة ذاته!”

أوما محمود برأسه موافقاً ثم قال:

“بالضبط وهذا يعني أن الرسالة الجديدة بحوزة ذلك الرجل الذي يقف بجوار جدك يا نوح.”

صمت الجميع وأخذ نوح يفكر بمن يكون هذا الرجل وأين يسكن وماذا تحمل الرسالة القادمة من تحديات.

سمعت السيدة رقية ذات الملامح المريحة الهادئة والتي في منتصف الخمسينات من عمرها طرقت على باب منزلها

المطلي بألوان مبهجة كمعظم بيوت النوبة فقامت لتفتح الباب
وعند رؤيتها للطارق تهلل وجهها رغم الإجهاد الظاهر عليها
وقالت بصوت هادئ مرحبة به:

“أهلا بك يا عم سليمان.”

ابتسم الرجل ذو البشرة السمراء والجلباب والطاقيّة البيضاء وقال
وهو يتكى على عصاه السوداء:

“كيف حالك سيّدة رقية. معي ضيف يستأذن لمقابلتك.”

أغمضت عيناها قليلا وبدأت عليها علامات الإجهاد وهي تقول:

“مرحبا بك وبضيفك يا عم سليمان. تفضلا.”

قالتها وهي تفتح الباب على مصراعيه وتدعو الرجل وضيفه
للدخول مشيرة إلى ساحة الجلوس الخارجية المظللة التي تقع في
الجهة الغربية من المنزل.

عندما جلس الجميع قال عم سليمان:

“دعيني أعرفك على الأستاذ نوح صالح. إنه حفيد الدكتور ياسين
الألفي صديق المرحوم.”

رفعت السيّدة رأسها مبتسمة وكان روحها ردت إليها وقالت:

“يا مرحبا يا مرحبا بحفيد الدكتور الغالي. لقد كان أعز أصدقاء زوجي رحمه الله وكانا يقومان سويا بمشاريع خيرية كثيرة بدأت في القاهرة واستمرت في النوبة. عندما جاء زوجي إلى هنا أول مرة وقع في غرام المكان وعزم على أن ننتقل أنا والأولاد لنعيش بقية حياتنا هنا، حتى أننا نقلنا أولادنا إلى إحدى المدارس هنا. على الرغم من أن المدارس هنا بسيطة ولكنها تربي الأولاد في بيئة خلابة وتعلمهم على أيدي معلمين أكفاء. الأطفال هنا كلهم براءة ورغبة في التعلم والتقدم. رحمه الله كم كان يحب النوبة وكان يعطي ويعمل من أجل أهلها بكل جوارحه.”

قال نوح بأسف:

“البقاء لله يا سيدتي. لقد تأثرت كثيرا عندما علمت أن زوجك توفي من أسبوع فقط، ولكن أنا على يقين أنه في الجنة الآن. لقد أخبرني عم سليمان عن الجنازة المهيبة التي قامت له من أهالي النوبة. الكل يذكره بالخير وأسأل الله أن يجعل كل مجهوداته في ميزان حسناته.”

أمّن الجميع على دعواه ثم ساد الصمت قليلا حتى قالت السيدة:

“دعني أقوم لأعد لكم الشاي.”

أشار لها نوح بيده أن تبقى مكانها قائلا:

“لا داعي سيدتي لقد جئت لأقدم واجب العزاء وأسألك عن أمر صغير إن سمحت لي. أعلم أن الوقت غير ملائم ولكني هنا في رحلة قصيرة وسأعود إلى القاهرة في أسرع وقت.”

نظرت إليه السيدة وبدا على وجهها علامات الترقب وهي تقول:
“تفضل أسأل يا بني.”

شعر نوح ببعض الحرج قبل أن يقول:

“أود أولاً أن أذكرك باسمي مرة أخرى. اسمي نوح ... نوح صالح. نوح صالح يا سيدتي.”

سكت نوح قليلاً ليرى ماذا ستقول السيدة التي لم تنطق بل هزت برأسها فقط فاستكمل نوح قائلاً:

“ألا يذكرك هذا الاسم بأي شيء؟”

تعجبت السيدة من السؤال وأخذت تفكر وعلى وجهها علامات التوجس ثم قالت:

“في الحقيقة لا يا بني. هذه أول مرة أسمع أو أعرف عنك. هل هناك أمر ما تتحرج أن تقوله؟”

لم يعرف نوح ماذا يقول فسألها سؤالاً مباشراً:

“هل ترك المرحوم أي وصية سيدتي؟”

بدا القلق على وجه السيدة وهي تقول:

“أتريد أن تقول أن هناك ما يجعل لك نصيباً في الميراث أم ماذا؟”

أشاح نوح بيده نافيا وهو يقول:

“لا ... لا مطلقا سيدتي. أنا فقط أسأل إن كان قد ذكر اسمي في أي وصية من وصاياہ. هل ترك شيئاً باسمي لتعطوني إياه بعد وفاته مثلاً.”

قامت السيدة بحزم وقد توجست خيفة ولم تشعر بالارتياح لهذه الأسئلة وقالت لعم سليمان:

“ماذا هناك يا عم سليمان؟ ما هذه الأسئلة المريبة التي يسألها ضيفك؟”

نظر عم سليمان إلى نوح بتعجب ولم يفهم الداعي من وراء كل هذه الأسئلة وقال بحرج شديد:

“عذرا يا سيدتي فالأستاذ نوح لم يأتي إلا للخير بالتأكيد.”

أكمل نوح مسرعا:

“أنا لا أقصد مضايقتك سيدتي. كل ما هنالك أن جدي ترك لي بعض الوصايا عند مجموعة من أصدقائه وفي رسالته الأخيرة إشارة إلى زوجك. وعندما علمت بأمر وفاته ظننت أنه قد يكون أوصى بتسليمي شيئاً ما عندما آتي إليكم.”

قالها وقام من مجلسه مكملاً:

“أرجو أن تلتمسي لي العذر سيدتي فلم أقصد أن أزعجك. هيا بنا يا عم سليمان.”

قالت السيدة بلطف بعد أن هدأت قليلا:

“عذرك معك يا بني. شرفنتي وشكرا على تقديمك لواجب العزاء.”

“شكرا سيدتي.”

قالها نوح وهو يتجه مسرعا نحو باب المنزل وهو يشعر بتوتر وخرج شديدين وما أن خرجا حتى قال له عم سليمان:

“ما هذه الأسئلة يا نوح. لو كنت أخبرتني بهذا الأمر لكنت فكرت معك في كيفية عرض الأمر على السيدة رقية بدلا من هذا الاحراج.”

“سامحني يا عم سليمان. ظننت أنها على علم بالموضوع وأن الأمر سيكون أيسر من ذلك بكثير.”

قالها نوح وهو يخرج هاتفه ليتصل بمحمود الذي أجاب:

“ظمني يا صديقي. هل حصلت على الرسالة السادسة؟”

قال نوح بأسف:

“زوجته لا تعرف شيئا عن الموضوع. نحن في ورطة.”

تعجب محمود وفكر قليلا قبل أن يقول:

“لا داعي للتوتر يا نوح. هناك العديد من الاحتمالات. فإما أننا ترجمنا الرقم سبعة على الصورة بشكل خاطئ وكان المقصود شيئا آخر غير هذا الرجل، أو أن السيدة لا تذكر بسبب حزنها على فراق زوجها ويمكن أن تتذكر بعد أن تهدأ قليلا. نحن بانتظارك أنا وسالي، تعال وسنفكر سويا في الخطوة القادمة.”

أغلق نوح الهاتف ونظر إلى النيل وهو لا يشعر بالارتياح هذه المرة. فيبدو أن هناك أمرا ما قد حدث أدى إلى انقطاع الحلقات الموصولة التي تركها له جده من خلالها رسائله.

لقد كان يخشى هذه اللحظة دائما ... فليس من المنطقي أن يظل كل شيء بهذه الصورة المثالية التي رتبها جده بعد ما يقرب من سنة ونصف على وفاته.

ولكن ما العمل الآن؟ هل حقا خانهم الذكاء في ترجمة مدلول الرقم سبعة على الصورة، أم أنه فقد حلقة الوصل للرسالة السادسة وبالتالي كل الرسائل الأخرى؟

“صباح الخير. كيف حالك يا صديقي؟ هل تفتقدنا أم أنك مستمتع وحدك في ذلك المكان الخلاب.”

قالها محمود عبر هاتفه الخليوي من غرفة معيشته في القاهرة فرد نوح وهو يجلس في شرفة منزله في النوبة قائلا:

“بالطبع أفتقدكم يا صديقي. ولكن لا أخفي عليك المكان هنا جذاب لدرجة أنني أفكر جديا في أن أنقل إقامتي إلى هنا. إن جو القاهرة ملئ بالتلوث الحسي والمعنوي أيضا. نحن نحرم أنفسنا بأيدينا من المتعة والسلام الداخلي.”

“كم تنوي أن تبقى بعد؟ لقد مضى على بقائك وحدك أكثر من ثلاثة أيام.”

تنهد نوح ثم قال:

“لا أدري يا صديقي، ربما أسبوع آخر. أنا أمل أن تتذكر تلك السيدة أي شيء وتأتيني بما أنتظر وأتوقع، فهذا هو الأمل الأخير. فلقد فكرنا وبحثنا كثيرا ولا يوجد أي دليل في رسالة جدي أو في الصورة المعلقة في المنزل هنا إلا هذا الرجل بجواره. لا بد وأن عنده مفتاح الرسالة القادمة.”

سمع نوح طرقا على باب المنزل فقال:

“عذرا يا صديقي. سأضطر لأن أغلق معك الآن فهناك من يطرق على الباب.”

أغلق نوح الهاتف واتجه نحو الباب وفتحه مبتسما ابتسامة خفيفة مرحبا لرؤية عم سليمان الذي قال:

“صباح الخير أستاذ نوح. كيف حالك اليوم؟ معي ضيف يود لقائك.”

نظر نوح لمن يقف بجوار عم سليمان فوجد سيدة شابة في الثلاثينيات من عمرها والتي بادرت قائلة:

“صباح الخير.”

“صباح الخير. كيف يمكنني خدمتك يا سيدتي؟”

استشعرت السيدة الحرج قبل أن تقول:

“معي شيء يخصك.”

تعجب نوح وقال بلهفة:

“حقا!!! ولكن هل لي أن أعرف من تكونين سيدتي؟”

انتبه نوح أنه لم يدعوها للدخول فقال بحرج:

“عذرا سيدتي. تفضل يا عم سليمان ... تفضلي سيدتي ...
فلنتحدث في الداخل إن لم تمانعا.”

قالها وفتح الباب مشيرا إليهما بالدخول وما أن جلسا في منطقة
استراحة الضيوف حتى قالت الشابة:

“أنا حنان ابنة السيدة رقية التي زرتها منذ أيام.”

رفع نوح حاجبيه مندهشا وقال:

“أهلا وسهلا بك. البقاء لله، أرجو أن تكون والدتك قد سامحتني على ما صدر مني فلم أقصد إزعاجها أبداً.”

ابتسمت الشابة قائلة:

“بالعكس. أنا التي يجب أن تعتذر لك.”

تعجب نوح قائلاً:

“العفو، ولكن لماذا؟”

اعتذرت الشابة في جلستها ثم قالت:

“لقد كنت الابنة الأقرب لقلب والدي وفي ذات يوم دعاني للحضور إلى بيته هنا منذ ما يقارب السنتان ونصف وأوصاني أن أتذكر اسم نوح صالح جيداً وأعلمني بمكان ذلك الصندوق الذي يتوجب عليّ إعطائك إياه فور زيارتك لنا. ولكنني نسيت أن أخبر أُمِّي بالأمر قبل أن أغادر إلى القاهرة حيث أعيش مع زوجي وأولادي بحكم عمل زوجي هناك. لقد سافرت قبل قدومك بيوم واحد فقط. وما أن أنهيت زيارتك لنا حتى اتصلت بي أُمِّي وأخبرتني كم هي قلقة مما حدث. عندها تذكرت وصية أبي وشرحت لها الأمر. أنا أعتذر عن تأخري بضعة أيام قبل أن أعود بسبب التزامات زوجي وأولادي.”

تنفس نوح الصعداء وقال:

“الحمد لله ... الحمد لله. شكرا جزيلا لك يا سيدتي، لقد كدت أفقد الأمل. أنت لا تعلمين مدى أهمية هذا الصندوق بالنسبة لي ففيه وصية هامة من جدي.”

ابتسمت الشابة وقالت:

“الحمد لله أنني جئت في الوقت المناسب قبل أن تترك النوبة. لقد كنت على اتصال يومي بعم سليمان وأوصيته أن يعطيك عنواني في القاهرة في حال سفرك قبل قدومي.”

أنهت جملتها الأخيرة ووضعت الصندوق على الأريكة التي كانت تجلس عليها وهي تنهض قائلة:

“والآن سأتركك مع وصيتك وسأذهب لأقضي اليوم مع أمي قبل أن أعود إلى القاهرة صباح الغد إن شاء الله. أكرر اعتذاري لك مرة أخرى.”

قال نوح في حرج:

“ولكني لم أقدم لك شيئا تشربينه. لا يصح هذا.”

ضحكت الشابة وقالت:

“لا عليك فأنا في عجلة من أمري... هيا بنا يا عم سليمان؟”

أوما عم سليمان برأسه مؤيدا وتحرك الاثنان نحو الباب ولحق نوح بهما حتى أوصلهما إلى الباب وقال مودعا:

“سلامي لوالدتك واسمحي لي أن أزورها قبل أن أسافر إلى القاهرة كي أعتذر مرة أخرى وأطمئن عليها.”

ابتسمت الشابة وقالت:

“بالتأكيد. تسعدنا زيارتك في أي وقت.”

وما أن غادرا حتى أغلق نوح الباب واتجه للمجلس ليأخذ الصندوق ثم خرج به إلى الشرفة وجلس ليفتحه ويقرأ الرسالة.

أمسك نوح بالرسالة يقرأها باهتمام سرعان ما تحول إلى قلق فجذب هاتفه ليتصل بمحمود الذي رد قائلاً:

“من كان الطارق يا صديقي؟”

أجاب نوح بصوت قلق:

“لقد استلمت الصندوق المسبوع الجديد وقرأت الرسالة يا محمود. ولكن هذه المرة الرسالة عجيبة ولا أفهم منها أي شيء.”

ضحك محمود قائلاً:

“لا تقلق يا صديقي. منذ متى كانت الرسائل واضحة. إنها دائماً قليلة الجمل عميقة المعنى ومعها كلمة سر غامضة.”

رد نوح بصوت شارد:

“محمود. الرسالة هذه المرة مكونة من ثلاث كلمات فقط!!”

طرق نوح على باب مكتب أستاذ إبراهيم في بيت الشرق
فسمعه من الداخل يقول:

“تفضل.”

فتح نوح الباب وما أن رآه أستاذ إبراهيم حتى تهللت أساريره
وقال:

“نوح ... أين كنت؟ ... لقد اختفيت فجأة بعد حفل الأوبرا.”

أجاب نوح بحرج:

“عذرا أستاذي فلقد كنت بحاجة ماسة إلى الراحة بعد المجهود
الشاق الذي بذلناه، ولذلك ذهبت إلى منزلي الخاص في النوبة
الذي تركه لي جدي من أجل أن أستريح قليلا وأرتب أوراقى
للمرحلة القادمة.”

ابتسم أستاذ إبراهيم قائلاً:

“النوبة... يا لها من بلدة ساحرة. علنا يوما ما ننظم حفلا كبيرا
هناك.”

نظر نوح إلى الأرض وتردد قليلا قبل أن يقول:

“في الحقيقة لم تكن فقط للاستراحة. لقد أشار جدي في رسالته الأخيرة أن أذهب هناك.”

اعتدل أستاذ إبراهيم في جلسته وقال باهتمام:

“ذهبت إلى هناك من أجل البحث عن رسالة جديدة أليس كذلك؟ وهل وجدتها؟”

نظر إليه نوح قائلاً:

“نعم وجدتها ولذلك جئتك اليوم لتساعدني في فهم الرسالة.”

“بالتأكيد. ماذا جاء فيها؟”

أجاب نوح بإحباط:

“الرسالة من ثلاث كلمات هي (تبنى القضية نوبل).”

قال أستاذ إبراهيم مندهشاً:

“فقط!”

“نعم، هذه الكلمات الثلاث فقط.”

قال أستاذ إبراهيم بحيرة:

“إنها حقا رسالة غريبة.”

هز نوح رأسه مؤيدا ثم قال:

“لقد فكرت كثيرا في معنى الرسالة وتوصلت لاستنتاج أود أن أشاركك فيه. ولكن في حال صحة استنتاجي فساكون أمام مشكلة أكبر.”

في هذه اللحظة دخل حسام عازف الناي وأصغر عضو في الفرقة سبعة وقال بسعادة بالغة:

“نوح العظيم ... كيف حالك يا رفيقي. أين كنت طوال هذه المدة؟ ومتى سنعاود التدريب والتحضير للمرحلة القادمة؟”

ابتسم نوح وقال:

“حسام ... كم اشتقت لسماع عزفك على الناي.”

أضاف الأستاذ إبراهيم قائلا:

“اجلس يا حسام ... لقد جننت في وقتك فنحن بحاجة لبعض الأفكار الإبداعية.”

نظر إليه نوح وقال مؤيدا:

“صحيح ... جننت في وقتك.”

وأخذ نوح يلخص الحوار الذي دار بينه وبين أستاذ إبراهيم منذ قليل ثم قال:

“لقد استنتجت من الرسالة أن جدي يريدني أن أتبنى قضية مرض السرطان. فهي نفس القضية التي كانت السبب بحصوله على جائزة نوبل، وهذا هو معنى (تبنى القضية نوبل). ما رأيكما؟”

سكت الجميع ليفكروا قليلا ثم قال حسام:

“أرى أنه استنتاج منطقي تماما.”

نظر نوح للأستاذ إبراهيم وكأنه يريد سماع رأيه فقال:

“أنا أؤيد حسام، استنتاج سليم. ولكن ما هي المشكلة الكبيرة التي ستواجهك في حال صحة استنتاجك.”

رفع نوح حاجبيه وكأن المشكلة تبدو واضحة تماما وقال:

“كيف لي أن أفعل ذلك، لقد كانت كل رحلتي في الفترة الماضية مركزة على اكتشاف وتطوير شعفي بألة القانون. كيف لي الآن أن أتبنى قضية مرض السرطان؟ كما أنني لست طبيبا في الأساس!”

أخذ أستاذ إبراهيم يفكر ثم التفت إلى حسام قائلا:

“ما رأيك يا حسام؟”

ابتسم حسام بخبث وقد جلس واضعا قدما فوق الأخرى ثم قال:

“الحل سهل جدا. ولكن ثمن الإدلاء به سيكون كبيرا.”

قال نوح بانفعال:

“يا الله عليك يا حسام، لست قادرا على التحمل... فلم أنم منذ أيام وأشعر فعلا بإجهاد كبير... قل لي ماذا ترى بلا مقدمات.”

تعجب حسام من حدة نوح فاعتدل وقال:

“اهدأ يا رفيقي. لقد كنت أمزح معك فقط.”

استشعر نوح الضيق لانفعاله فقال بصوت هادئ:

“سامحني يا حسام، لم أقصد أن أنفعل ولكني في حالة توتر شديدة منذ استلامي لهذه الرسالة. أخشى أن أكون قد سرت في طريق خاطئ وأن جدي أراد من كل تلك الرسائل السابقة أن يوجه نظري لمرض السرطان.”

قاطعه أستاذ إبراهيم قائلا:

“مستحيل يا نوح. أنسيت آلة القانون التي صنعها خصيصا من أجلك. لقد أراد لك جدك هذا الطريق وليس غيره ولكن علينا أن نجد العلاقة بين شغفك بآلة القانون وعلاج مرض السرطان.”

انتبه نوح لهذه الحقيقة فقال:

“صحيح... كيف نسيت هذا؟! ... حسام ... هات ما عندك.”

قال حسام بابتسامة خفيفة:

“الأمر بسيط جدا. كل ما عليك فعله هو توظيف شغفك لخدمة قضية مرض السرطان، وهناك مئات الأفكار لفعل ذلك ولكن الفكرة الأقرب والتي ستؤدي لصدى إعلامي واسع النطاق في العالم كله هي كالآتي.”

ثم مد حسام يده ليأخذ ورقة فارغة من على مكتب الأستاذ إبراهيم ثم أخذ قلم رصاص من المجموعة التي كانت في علبة الأقلام ثم كتب على الورقة بخط كبير (٥٠٪).

نظر نوح والأستاذ إبراهيم للورقة ثم تبادلوا النظرات قبل أن يقول نوح بضيق:

“أنا لا أفهم شيئا؟”

ضحك حسام ثم قال:

“سنخصص ٥٠٪ من عائدات حفلاتنا للمؤسسات المعنية بعلاج مرض السرطان في كل بلد نساfer إليه لتقيم حفلا لنا. هذه الفكرة ستصنع صدى كبير في الأوساط الإعلامية العالمية وستساهم بشكل كبير في تمويل علاج مرض السرطان في العالم كله.”

ارتد نوح والأستاذ إبراهيم في مقعدهما وساد الصمت قليلا قبل أن يقول أستاذ إبراهيم:

“مدهش!”

ثم أضاف نوح:

“أقل ما توصف به هو كلمة عبقرى.”

ضحك حسام وقال مازحا:

“هذا أقل ما عندي.”

ثم أكمل قائلا بجدية:

“علينا الآن أن نتصل بزياد لنضع سويا خطة تسويقية متكاملة نحدد فيها أكبر المؤسسات المعنية بعلاج مرض السرطان وندشن حملة كبيرة في كل وسائل الإعلام ونحدد المدن التي سنسافر إليها! باختصار أمامنا عمل كثير ... ففضية بهذا الحجم مع حلمنا وشغفنا الكبيرين ستجعلنا قادرين على إحداث تغيير كبير في العالم.”

لمعت عينا نوح وشعر بنفس ذلك الإحساس المهيّب الذي شعر به مع أول مرة اكتشف فيها شغفه ... فعندما تربط شغفك بقيمة كبيرة تصبح الحياة ذات معنى وعمق وأثر فوق الوصف.

ولكن قبل أن يبدأ نوح بهذا العمل الضخم كان عليه أولا أن يضع حدا فاصلا ونهائيا في أمر أسرته وعلاقته بمريم.

جلس نوح في سيارته أمام مدرسة لارا ليشاهدها من بعيد في أول يوم لها في المدرسة وخفق قلبه بسرعة عندما رآها تحمل حقيبتها وتسير مع والدتها ووجهها البريء ممتلئاً بالسعادة، وعندما اقتربنا من باب المدرسة نزل نوح من سيارته ونادى عليها قائلاً:

“لارا حبيبتي.”

نظرت إليه لارا وأفلنت يد والدتها وجرت نحوه وارتمت في حضنه ثم قالت:

“أبي ... الموسيقى المشهور. كم أنا سعيدة لحضورك اليوم. لقد أصبحت كبيرة الآن وأذهب إلى المدرسة. أنا لست خائفة وسأحاول أن أستمتع وأكون تلميذة ذكية وناجحة مثلك يا أبي.”

ابتسم نوح وأمسك وجهها وقبل جبينها وقال:

“أنا متأكد من ذلك حبيبتي. أنا دائماً فخور بك.”

قاطعتهما مريم قائلة بحزم:

“لارا هيا بنا لا يجب أن نتأخر في أول يوم لك في المدرسة.”

ارتمت لارا في حضنه مرة أخرى وقالت:

“سلام يا أبي، أراك لاحقاً. أرجوك يا أبي لا تتعد عنا كثيراً. أنا دائماً في شوق إليك.”

ربت نوح على كتفها وقبل يديها قائلاً وهو ينظر إلى مريم:
"إن شاء الله سنجتمع قريباً في منزلنا مرة أخرى حبيبتي."

نظرت إليه مريم بتعجب ولم تعلق ثم أمسكت لارا من يدها
ودخلا باب المدرسة.

مر ما يقرب من الساعة على دخولهما قبل أن تخرج مريم من
باب المدرسة متوجهة إلى سيارتها واندحشت عندما رأت نوح
في انتظارها فقالت باقتضاب:

"نوح. هل ما زلت هنا؟ ... آه صحيح نسيت أنك بلا عمل.
معذرة أنا عندي عمل هام ولا بد أن أذهب الآن."

ابتسم نوح محاولاً التغاضي عن سخريتها قائلاً:

"لقد مر أكثر من عام على تركك للمنزل وخلال هذا العام مرت
مواقف كثيرة حرمت فيها منك ومن ابنتي، ومررت بلحظات
كنت فيها بحاجة شديدة لتكونوا معي، مع ذلك لم أستطع أن أفوت
أول يوم لابنتنا في المدرسة، ولهذا جئت وانتظرتك لأنتهز هذه
الفرصة ونذهب معاً إلى مكان ما لنتحدث قليلاً."

ردت مريم متمعدة تجاهل مشاعره قائلة:

"لا يمكن ... يجب أن أذهب الآن."

حافظ نوح على هدوئه وهو يقول:

“مريم لا بد أن نتكلم ونصقّي ما بيننا أرجوك. إلى متى سنظل هكذا. أنا أدعوك لنتناول طعام الإفطار سويا في مطعمنا المفضل.”

نظرت إليه مريم بنظرة حادة قائلة:

“لقد تحدثنا كثيرا وموقفي كان واضحا. أنت الذي تماطل ولا تريد أن تنتهي هذا الأمر.”

أخذ نوح نفسا عميقا وقال:

“مريم ليس من المناسب أن نتحدث في الشارع هكذا، دعينا نذهب لمكان هادئ ونتحدث قليلا.”

قالت مريم بصوت منفعل:

“ليس هناك ما نتحدث فيه. أنا لن أغير موقفي و...”

أشار لها نوح بالتوقف وقال:

“حسنا دعينا على الأقل ندخل إلى السيارة قبل أن يلفت انفعالك أنظار الناس.”

تأففت مريم قبل أن تفتح باب سيارتها وتجلس بداخلها وتبعها نوح ليجلس في المقعد المجاور وما أن هم بالكلام حتى أوقفته قائلة:

“أنا لن أغير موقفي. لا تظن أن الشهرة التي حظيت بها ستجعلني أنبهر وأتأثر وأشعر أنك كنت على حق. في نهاية الأمر هي شهرة مؤقتة وزائفة نتيجة تسليط الإعلام الضوء على ما قمتم به من عزف في الشوارع مثل متسولي أوروبا. أنت تسير في طريق أعمى العينين ولا تتبع سوى هواك الشخصي ولقد مللت حقاً منك ولكني لا أريد أن أرفع قضية خلع مراعاة لشعور ابنتنا، فهي في قمة الفخر بك وبشهرتك ولا أريد أن أخبرها بالحقيقة الصادمة.”

قال نوح بأسف شديد:

“مثل المتسولين يا مريم ... أهذا كل ما رأيت مما قمت به من إنجاز. أيعزف المتسولين في المسرح الكبير بدار الأوبرا يا مريم؟”

ثم اعتدل في جلسته وقال:

“أريد أن أعلمك بأمر هام وجديد عله يحدث فارقا في نظرتك لما أقوم به. سأقوم في المرحلة القادمة وبناء على وصية جدي الأخيرة بتخصيص نسبة 50% من عائدات حفلاتي لتمويل مؤسسات مرضى السرطان في العالم كله. ألا تعتبرين ذلك إسهما جليلا للقضاء على مرض العصر. كيف كان لي أن أساهم وأن أكون ذو بصمة وغاية نبيلة كهذه إن استمررت في مجال البنوك الذي كان يستنزف روحي.”

قالت مريم بتكبر:

“إنها مجرد وسيلة ذكية لإيجاد غاية نبيلة تبرر شعورك بتفاهة ما تقوم به. لقد سأمت من محاولتك هذه، أرجوك لا تحاول مجدداً أن تثبت أن الحق معك وأني أنا التي لا تقدر وضعك وظروفك و... و... و... لقد أصبحت مملاً حقاً ومهما قلت أو فعلت فلن يتغير موقفي حتى تفيق من الغيبوبة التي غرسها فيك جدك المخبول.”

قال نوح بحزم شديد:

“يبدو أنه لا أمل فعلاً، واضح أنك مستمرة في عنادك وتكبرك يا مريم. لقد مر سنة على خلافنا حاولت فيها أن أستسمحك وأشرح لك كثيراً ولكن من الواضح أنك عازمة على إنهاء علاقتنا والمضي وحدك في الحياة.”

ثم أخذ نفساً عميقاً قبل أن يقول:

“وأنا سأعطيك ما تمنيت يا مريم. يعلم الله كم يعصر قلبي قرار بعدي عنك وعن لارا، ولكن لم يعد بيدي ما أفعل أو أقول. لقد ظننت أنك ستغيرين موقفك بعد رؤية نجاحاتي ولكن للأسف من الواضح أنك ما زلتِ مصرة.”

أخذ نفساً عميقاً ثم قال:

“حسناً، ستكون عندك ورقة انفصالنا في خلال أسبوع على الأكثر. ولكن اعلمي أنك أنت التي اخترت هذا الخيار ولم تسمعي صوت الحق لا بعقلك ولا بقلبك.”

أغمضت مريم عينيها وقالت ببرود شديد:

“عليّ الآن الذهاب للعمل فلقد تأخرت كثيرا.”

نظر لها نوح باشمئزاز قائلا:

“لم تعودى مريم التي أحببتّها. ومن الآن فصاعدا ليس لك مكان في حياتي، وما سيربطني بك فقط هو ابنتنا لارا التي أتمنى ألا تؤثرى سلبا على نظرتها لي.”

قالها واندفع خارجا من السيارة وما أن أغلق الباب حتى انطلقت مريم مسرعة مما أدى إلى تطاير الغبار الكثيف في وجه نوح والذي نظر إليها وهو يحمل في قلبه تجاهها كراهية كبيرة بقدر حبه لها.

اتجه نوح لسيارته وهو يجري اتصالا بمحمود الذي أجاب قائلا:

“قل لي أنها استجابت وأنكم الآن (سمن على عسل).”

رد نوح بحزن شديد:

“سأذهب للمأذون الآن لأتمم إجراءات الانفصال.”

صعق محمود وقال مذعورا:

“ماذا تقول؟ لا حول ولا قوة إلا بالله ... لا حول ولا قوة إلا بالله!”

رد نوح بهدوء قائلا:

“هذه إرادة الله يا محمود. لقد حاولت وصبرت كثيرا ولكن لم يعد هناك مجال للمماطلة أكثر من ذلك. أنا على وشك دخول مرحلة مهمة من حياتي لا تتحمل مزيدا من الحزن أو الأمور المعلقة. كما أنني من الآن فصاعدا لن أتحمل مسؤولية نفسي فقط، فهناك قضية كبرى عزمت على أن أتبناها ولن أخذل أصحابها من أجل أمور شخصية.”

أجاب محمود بحزن:

“تبتك الله يا صديقي ... وكتب لك ما يرضيك ويسعدك.”

قال نوح بجدية:

“المهم. لقد اتصلت بك الآن لأعلمك أنني سأسافر مرة أخرى إلى النوبة وهذه المرة للراحة والعزلة فقط وليس بحثا عن سر آخر. أنا بحاجة لأنعزل قليلا وألم شتات أموري. أريدك أن تتواصل مع أفراد فرقتي وتعلمهم بالأمر وتطمئنهم أنني لن أتأخر عليهم كثيرا. فأنا أعلم أنني لو اتصلت بهم لن يتركوني أسافر.”

قال محمود مطمئنا:

“لا تقلق يا صديقي سأعلمهم، وأسأل الله أن يثلج صدرك ويفرح همك.”

أنهى نوح المكالمة وأدار محرك سيارته وتحرك وهو لا يعلم كيف ستكون الحياة بدون أسرة تقف بجواره وتفرح معه وتشاركه كل خطوة. في كل لحظة يفكر فيها يعتمر قلبه ألم بالغ

على ما آلت إليه الأمور، لكنه تمنى أن يجد في رحلته الجديدة
إلى النوبة شفاء لحزن فراقه لأسرته ودعما لما هو مقبل عليه في
حياته من جديد.

(٧)

خرج نوح مع أفراد فرقته من بيت الشرق في ساعة متأخرة من الليل بعد يوم طويل من البروفات والتدريبات حين قال زياد:

“لقد اشتقت لهذه الأيام منذ حفل الأوبرا. في الحقيقة لقد كنت قلقا أن تنسحب من الفريق يا نوح بعدما عرفت من صديقك أنك سافرت إلى النوبة في رحلة نقاهة. ولكن الحمد لله لم يدم غيابك طويلا.”

ابتسم نوح وقال:

“لا تقلق يا زياد. فما نقوم به ليس ممارسة لهواية. بل إنها أصبحت قضية عمري التي لن أتنازل عنها حتى آخر نفس لي.”

رفع حسام كفه للأعلى ليسلم على نوح وزياد قائلا:

“حسنا، عليّ الذهاب الآن لأنال قسطا من الراحة. سلام يا شباب.”

“خذني معك. تصبح على خير يا نوح، نراك غدا إن شاء الله.”

قالها زياد ورافق حسام باتجاه سيارتهما بينما توجه نوح إلى
الجهة المعاكسة حيث ركن سيارته. وفي منتصف الطريق
اعترضته سيارة سوداء فارهة توقفت بجواره مباشرة فترجع
نوح خائفاً، في نفس اللحظة نزل الزجاج الخلفي المعتم ليكشف
عن رجل مسن في الستينات من عمره ذو شعر ولحية بيضاء
وقال بلهجة حازمة بها هيبة كبيرة:

“لا تخف يا نوح. أريدك أن ترافقتي الآن.”

لم ينطق نوح فعاود الرجل حديثه بنفس اللهجة المؤثرة:

“قلت لك لا تخف. معي شيء يخصك من جدك الدكتور ياسين
الألفي.”

اندهش نوح وقال بتردد:

“وما الذي يدريني أنك تقول الصدق.”

نظر إليه الرجل بحدة وقال بحسم:

“اركب بجواري يا نوح.”

لم يستطع نوح أن يقاوم هذه الكاريزما والهيبة فتحرك ببطء
ليركب بجوار الرجل الذي ابتسم قائلاً:

“أريدك أن تستريح الآن حتى نصل إلى فيلتي الخاصة ولا تقلق
فسنعيدك إلى هنا حين ننهي حديثنا. كل ما أريدك أن تعرفه الآن
أن جدك بالتأكيد فخور بك وبكل ما قمت به.”

تعجب نوح وهمّ بقول شيء ولكن قاطعه الرجل بإشارة من يده
ثم أغمض عينيه وقال للسائق:

“انطلق يا إسلام.”

جلس نوح طوال الطريق في ترقب وتوجس بينما الرجل بجواره
يجلس مغمض العينين بهدوء تام. مرت خمس وأربعون دقيقة
قبل أن يصلوا إلى فيلا رائعة في منطقة السادس من أكتوبر
تحيطها حديقة مليئة بالزهور والنباتات ذات الألوان الزاهية
ومسلط عليها أضواء خارجية أضافت للمشهد سحرا خاصا.

توقفت السيارة أمام مدخل الفيلا ونزل السائق ليفتح الباب لنوح
ثم أسرع للباب الآخر ليفتحه لذلك الرجل المهيب والذي قال:

“اتبعني يا نوح.”

نظر إليه نوح وتحرك خلفه وكأنه منوم مغناطيسيا حتى دخل
الفيلا ومنها لغرفة مكتب لم يرى نوح لفخامتها مثيلا وجلس
الرجل على أريكة من الجلد الأسود وأشار إلى نوح بيده ليجلس
بجواره قائلا:

“ماذا تشرب؟”

تردد نوح وقال بقلق:

“لا داعي. فقط أريد أن ...”

“اجلس يا نوح.”

قاطعته الرجل وأشار للخادم الذي كان يقف على الباب منتظرا التعليمات قائلا:

“أغلق الباب من فضلك ولا تدع أحدا يدخل علينا.”

“حاضر سيدي.”

خرج الخادم وأغلق الباب بينما جلس نوح على الكرسي المجاور للأريكة ونظر إلى الرجل الذي ابتسم قائلا:

“ما كل هذا القلق والتوتر. أليس من المفترض أنك تنتظر رسالة جديدة من جدك؟”

اندهش نوح وقال:

“هل تحمل رسالة من جدي؟”

“بالطبع. أنا أحمل الرسالة الأخيرة وأشرفت على كل الرسائل السابقة أيضا.”

حرك نوح رأسه وقطب حاجبيه في عدم فهم أو تصديق لما يقوله الرجل ثم قال بصوت خافت:

“هل قلت الرسالة الأخيرة.”

تمطط الرجل واتكأ بجسمه على الأريكة ثم قال:

“دعني أشرح لك. فيبدو أنك لن تتحمل المزيد من الغموض.”
ثم أعتدل الرجل ونظر إلى نوح مباشرة وقال:

“اسمي مصطفى، مصطفى الحاوي.”

فكر نوح قليلا وقال:

“أظن أنني سمعت هذا الاسم من قبل.”

ضحك الرجل قائلا:

“بالتأكيد يا بني. وبالأخص إن كنت تتابع قوائم أغنى أغنياء العالم. ستجديني في المركز العاشر في القائمة.”

بدت على نوح ملامح الهدوء وخفت حدة توتره بينما أكمل الرجل قائلا:

“تعرفت على جدك أثناء مرض ابنتي أنجلينا من زوجتي الأمريكية بمرض السرطان. حينها أجمع كل الأطباء الأمريكيين على أن حالتها ليس لها علاج أكيد أو فعال ونصحني أحد الأطباء هناك أن أتواصل مع جدك وأعلمني أنه طور أساليب جديدة في علاج المرض يمكن أن تحدث فرقا في حالة ابنتي.

وفعلا فقد كان شفاؤها على يديه بفضل من الله سبحانه وتعالى. ومنذ ذلك الحين أدين له بعمرى وأصبحت علاقتنا وطيدة جدا.”

جلس نوح ينصت باهتمام شديد في حين أكمل الرجل قائلا:

“لقد سافر جدك إليّ قبل وفاته بما يقرب من ثمانية أشهر وأعلمني بالوصايا التي تركها لك وطلب مني تخصيص أحد رجالي لتعقبك ومتابعة أخبارك خطوة بخطوة وسلمني رسالتين. واحدة منها تركناها لك في السيارة بعد حفل الأوبرا. فلم يقاوم السائس طلب رجالي بفتح السيارة بعدما دفعوا له مئتان جنيه.”

ضحك الرجل وسط تعجب نوح الذي قال:

“إذن فأنت الذي تركت لي تلك الرسالة!”

لم يجب الرجل ولكن أكمل قائلا:

“والرسالة الأخيرة التي طلب مني أن أسلمها لك في الوقت المناسب بعد تبنيك لقضية مرض السرطان. لقد كنت أتابع أخبارك وعندما أبلغني رجالي أنك بدأت تنشر أخبارا على مواقع التواصل الاجتماعي الخاصة بفرقتك وبما تتوون فعله من تخصيص ٥٠٪ من عوائد حفلاتكم لدعم مؤسسات علاج السرطان في العالم كله تحركت إليك على الفور.”

ثم نظر إليه مباشرة وأكمل:

“بغض النظر عن وصية جدك، فإن ما تقوم به يا نوح يمثل رغبتى ووصيتى الشخصية. فأنا عازم على تخصيص ٨٠٪ من ثروتى لدعم مؤسسات السرطان ومساعدة الملايين على الشفاء من هذا المرض اللعين كشكر الله على شفاء ابنتى.”

لم يصدق نوح ما سمعه فقال محاولاً أن يفهم:

“ماذا يعني هذا سيدي؟ أنا لا أصدق ما أستنتجه.”

ضحك الرجل وقال:

“استنتاج صحيح يا نوح. لقد اتفقت مع جدك على تسخير كل علاقاتى ونفوذى لدعم قضيتك ... أو قضيتنا جميعاً إن جاز التعبير. ولذلك قلت لك أن جدك فخور جداً بك، لقد قاومته في البداية وقلت له كيف يمكن أن تضع مصير قضية مهمة كهذه في يد حفيدك وكيف ستأكد أنه سيتبع وينفذ الرسائل وهل سيكون قادراً على استنباط معانيها. ولكنه كان واثقاً ومؤمناً بك لدرجة غير معقولة، ويبدو أن إيمانه كان بمحله.”

ظهرت علامات الفرحة الغامرة ممزوجة بالتأثر على وجه نوح فأكمل الرجل قائلاً:

“لقد رأيتك تحاول نشر الخبر الخاص بفرقتكم وما تتنون القيام به على مواقع التواصل الاجتماعي ووجدت الخبر قد بدأ بالانتشار في بعض الصحف القومية ولكنى سأخذ تلك المحاولات لمستوى أعلى بكثير. سأتواصل مع أصحاب النفوذ واتخاذ القرار ووسائل الإعلام في العالم لننشن أكبر حملة لدعم

مرض السرطان في كل دول العالم الفقير منها والغني. أنا أمتلك مؤسسة إعلامية ضخمة ستقوم بهذا الدور كاملا وما عليك القيام به فقط هو التركيز على تقديم أروع ما عندك أنت وفرقتك. أريد لعرض الأوبرا القادم أن يكون أفضل مما كان عليه بمئة مرة. نريده عرضا مبهرا لم يرى العالم مثيلا له من قبل. افعل أنت ذلك وأترك الباقي لي.”

قال نوح والابتسامة تملأ وجهه:

“أنا لا أصدق ما أسمع. أنا في حلم بالتأكيد.”

ضحك الرجل وربت على فخذ نوح قائلا:

“لقد أثبت جدارة غير مسبوقه يا نوح وبذلت جهدا كبيرا وأظهرت شغفا ليس له مثيل، ولذلك تستحق كل الدعم لمساعدتك. لن أدخر أي جهد لأصنع منك أسطورة حقيقية. سنبدأ إطلاق الحملة العالمية بحفل لم يشهد العالم له مثيل عند سفح الأهرامات حيث عزف أسطورة البيانو يأتي وسندعو كل العالم ليشاهدك وسنبث الحفل حيا في كل العواصم الكبرى في العالم. سنري العالم أسطورة آلة القانون وسحر الشرق عندما يجتمعان مع بعضهما.”

أخذ نوح نفسا عميقا وقال:

“يا إلهي! لا يستطيع عقلي استيعاب ما تقول.”

قال الرجل بحسم:

“لابد أن ترى وتصدق هذا المشهد يا نوح. حان الوقت لأن تأخذ حلمك لأبعد من حدود السماء.”

أوماً نوح برأسه ثم بدا عليه أنه تذكر شيئاً مهماً فسأل قائلاً:

“ولكن ماذا عن الرسالة الأخيرة؟”

ابتسم الرجل قائلاً:

“الرسالة الأخيرة لن أسلمك إياها إلا على المسرح لتقرأها على الناس قبل بداية تلك الحفلة الأسطورية التي سنعدها لك. رسالة منك ومن جدك إلى العالم أجمع قبل إطلاق أكبر حملة في التاريخ لدعم وتطوير علاج مرض السرطان.”

حدق نوح في الرجل بذهول عندما سمع عبارته الأخيرة. وأخذ يفكر فيما يمكن أن تحتويه هذه الرسالة الموجهة للعالم أجمع في ذلك اليوم الأسطوري.

قطع الرجل حبل أفكاره وقال:

“لا تشرد بذهنك كثيراً. فقط استعد أنت ورفقتك كما لم تستعدوا من قبل. وتخيل هذا اليوم بكل تفاصيله وصدق أن حلمك سيغير العالم.”

“صباح الخير يا كلجين. كيف حالك وحال معلمي
العظيم.”

قالها نوح عبر هاتفه الخليوي وهو يحتسي الشاي في شرفة منزله
فردت كلجين بسعادة:

“صباح الخير يا نوح. أين كنت طوال الأسبوعين الماضيين؟ لقد
تعودنا أن نطمئن على أخبارك مرة في الأسبوع على الأقل.”

ابتسم نوح وأجاب وفي صوته مزيج من الحزن والتردد:

“في الحقيقة لقد كان الأسبوعان الماضيان من أصعب الفترات
التي مرت عليّ في حياتي ولكن ربما كافأني الله في النهاية بشبه
معجزة.”

قالت كلجين بتعجب:

“وهل هذا يعني أن أواسيك أم أفرح لك، أخبرني بالله عليك ماذا
حدث ولا داعي لأسلوب التشويق هذا.”

تردد نوح قبل أن يجيب بأسف:

“هل تذكرين حين قلت لي أن الحب الحقيقي يدفع صاحبه لمساندة
من يحب في أيّ طريق اختاره. كان معك كل الحق.”

“لا أفهم ماذا تقصد.”

أكمل نوح بلهجة حزينة:

“لقد حاولت كثيرا مع زوجتي أن تعود إلى المنزل وأن تسامحني على تقصيري وأردت أن أثبت لها من خلال نجاحي وخصوصا بعد حفل الأوبرا أنني أسير في طريق مشرف لها هي وابنتي، ولكن يبدو أن قلبها قد أغلق تماما ولم تعد ترى أو تسمع إلا صوت الكبرياء بداخلها.”

قالت كلجين بتأثر:

“يحزنني كثيرا أن أسمع ذلك.”

“لقد كنت في الأيام الماضية أنهي إجراءات الانفصال. كل ما يؤلمني حقا هو بعدي عن ابنتي.”

أجابت كلجين بلهجة حاولت أن تخفي فيها سعادتها بهذا الخبر:

“أمر مؤلم حقا ولكن ماذا كان عليك أن تفعل أكثر من هذا. وبالتأكيد سترى ابنتك بين الحين والآخر وشهرتك ستجعلها في ارتباط دائم بك وبأخبارك وستزداد فخرا بما تقوم به وتزداد زوجتك ندما أنها تركتك.”

قال نوح بصوت خافت:

“أمل ذلك.”

حولت كلجين من نبرتها لتحاول أن تخرج نوح من حالة التأثر
وقالت:

“وما هو ذلك الأمر الأشبه بالمعجزة؟”

سرت الحيوية في عروق نوح مرة أخرى عندما تذكر هذا الأمر
وقال بحماس:

“لقد قابلت صديقا لجدي اسمه مصطفى الحاوي. إنه على قائمة
أغنى عشرة أشخاص في العالم وهو من يحمل الوصية الأخيرة
التي تركها لي جدي. قال لي أنه كان يتابع ويشرف على رحلتي
منذ البداية وأن جدي أوصاه أن يدعمني عندما أصل لهذه
المرحلة من رحلتي.”

قالت كلجين في حماس وسعادة بالغة:

“هذا خبر رائع. فعلا إنها مكافأة الله لك.”

أكمل نوح بنفس الحماس قائلا:

“هو الآن يجهز من خلال مؤسسته الإعلامية أكبر حملة عالمية
لدعم مكافحة مرض السرطان وذلك من خلال تخصيص ٥٠٪
من عوائد حفلات فرقتي لتطوير علاج المرض في العالم بأسره.
في الفترة القادمة سأجوب العالم أجمع لأطرب قلوب الناس بألة
القانون وأشفي مرضاهم بعوائد الحفلات. سأكون الأسطورة التي
أرادها المعلم باران وسأحقق الحلم الذي وعدته به.”

“عظيم عظيم. سيظير أبي فرحا بتلك الأخبار.”

قال نوح بلهجة تحمل الجدية:

“في الحقيقة أنا أريد منك جميل العمر.”

أجابت كلجين بشكل فوري قائلة:

“بالتأكيد. لن أدخر جهدا في مساعدتك في أي شيء.”

ابتسم نوح وقال:

“سنطلق الحملة العالمية من خلال حفل أسطوري سينظم على أعلى مستوى من التقنيات والخبرات عند سفح الأهرامات، وسيتم بث الحفل على الهواء مباشرة في كل عواصم العالم. وأعتمد عليك بأن تقنعي المعلم باران بحضور الحفل الذي سيقام بعد شهرين من الآن بإذن الله.”

صعقت كلجين وقالت:

“يا إلهي، هذا طلب شبه مستحيل. لن يقبل أبي أن يترك مكانه هنا أبدا، وحتى إن قبل فإن جلوسه على الكرسي المتحرك يعتبر مشكلة كبيرة بحد ذاتها.”

قال نوح بتفهم:

“أعرف ذلك بالتأكيد ولكن عندي أمل كبير أن يحضر شخصيا ليرى بعينه حلمه وهو يتحقق ويشاهد تلميذه وهو يغير العالم بألة القانون التي يشاركه عشقها.”

ساد الصمت قليلا قبل أن تجيب كلجين:

“سأحاول أن أعرض عليه الأمر وسأبذل قصارى جهدي لإقناعه. ولكن لا أستطيع أن أعدك، فهو أمر بغاية الصعوبة.”

ابتسم نوح قائلاً:

“لو نجحتِ فستكونين قد قدمتي لي أعظم جميل في حياتي. واعلمي أنني أقدرُك وأقدر دمعك لي وإيمانك بي بغض النظر عن نتيجة طلبي هذا.”

ابتسمت كلجين بخجل وأجابت قائلة:

“سأفعل كل ما أستطيع. أريدك فقط أن تركز جيدا على التدريب والابتكار وأن تسمع الجمهور في ذلك اليوم ما لم تسمعه آذانهم من قبل. عندما يستيقظ أبي سأبدأ بتمهيد الموضوع له ولنأمل أن تحدث المعجزة، سأوافيك بالأخبار.”

“شكرا كلجين. أنا أثق بك تماما وأعدك أن الحفل سيكون رائعا لدرجة لا يمكن تصورها إن شاء الله.”

أنهى نوح المكالمة وعقله يفكر في كلجين وقلبه يخبره بأمر هام باستطاعته أن يعيد لحياته التوازن الذي افقدته.

تدفق آلاف الناس إلى ساحة الحفل الأسطوري للفرقة سبعة عند سفح الأهرامات وسط تنظيم مهيب لم يشهد العالم له مثيلا من حيث التقنيات المستخدمة والإضاءة والديكور مما أضفى على المكان روحا من الإبداع وسحرا غير مسبوق.

كانت الأعداد كبيرة جدا حتى أن الأمر قد تطلب ساعة تقريبا قبل أن يستقر الوضع وتطفئ جميع الأنوار عدا تلك المُسلطة على المنصة التي وضعت في الجانب الأيمن من المسرح. كان الحشود بانتظار نوح ليلقي كلمته قبل بدأ الحفل.

جلس الجميع في صمت تام وترقب حتى ظهر نوح وتوجه نحو المنصة ليستقبله الناس بتصفيق وصفير حار قابله نوح بتواضع وتقدير ولكن قلبه وجوارحه كانا معلقان برسالة جده الأخيرة التي يحملها والتي سيقراها عليهم جميعا الآن.

انتهى التصفيق فاقترب نوح من الميكروفون وقال:

“شكرا للحضور الكريم، لقد أسهمت جميعا في قضية نبيلة وأصيحتم جزء من أمل كبير نسعى لصنعه لشفاء الملايين. قبل أن نبدأ الحفل المنتظر الذي سنعيد من خلاله كتابة تاريخ جديد للموسيقى العربية بعزف لم تسمعوا له مثيلا من قبل، أود أولا أن أقرأ عليكم رسالة من جدي ... ذلك الشخص الذي أحببت الحياة

من أجله والذي كان سببا بعد الله سبحانه وتعالى في كل ما ترونه اليوم. وأود أن أخص بالشكر أيضا أستاذي إبراهيم أنور عازف آلة القانون الشهير الذي بذل معنا جهدا خرافيا في الإعداد للمقطوعات التي سنعزفها الليلة. أود أيضا أن أشكر المعلم العظيم باران شيروان الذي نقل إلي أسرار آلة القانون وجعل مني عازفا فريدا ولا أعلم إذا كان حاضرا بيننا أم لا ولكني أعلم بالتأكيد أنه على الأقل يشاهد الحفل الآن من خلال البث المباشر في تركيا. كما أشكر جزيل الشكر الأستاذ العظيم مصطفى الحاوي الذي كرس ثروته وعلاقاته لتنظيم هذه الحملة التاريخية."

صمت قليلا وأخذ نفسا عميقا ثم قال:

"والآن مع رسالة جدي الدكتور ياسين الألفي رحمه الله."

بسم الله الرحمن الرحيم

السلام عليكم جميعا.

اسمي ياسين الألفي ويعرفني البعض بأسطورة الطب لحصولي على جائزة نوبل لإسهاماتي في علاج مرض السرطان.

لا أنسى ذلك اليوم الذي دخل فيه أبي إلى غرفتي وأنا أدرس استعدادا لامتحان مهم في السنة الأولى بكلية الطب وأغلق الباب

وجلس بجوار مكتبي وبعد أن اطمأن على أحوالي اقترب مني وهمس بأذني قائلاً:

“تذكر كلماتي هذه جيداً يا ياسين، فالعمر قصير ولا أدري متى موعد الأجل. يا بني أريدك أن تصنع الأمل، وبعد أن تصنعه لا بد أن تترك أثراً ينير للآخرين الطريق كي يصنعوا آمالاً جديدة لمن يأتي بعدهم.”

قال أبي تلك الجملة ثم ترك الغرفة وأنا في ذهول من نبرته وملامح وجهه، فأنا لم أره على هذا الحال من قبل ولم يعتد أبداً أن يوصيني بكلمات من الحكمة بهذا الشكل. لم أستطع النوم تلك الليلة وظللت أفكر في معنى ما قال، وبعد أسبوع فارق أبي الحياة ولكن لم تفارق كلماته قلبي.

منذ ذلك الحين وأنا أنام قليلاً وأعمل كثيراً من أجل صناعة الأمل في مواجهة أقسى أمراض هذا العصر حتى وفقتي الله لذلك، ولكن المشوار ما زال طويلاً والأبحاث لا بد أن تستمر وتأخذ ما تركته وتطوره حتى لا يعود لهذا المرض مكاناً بيننا.

وفي ليلة حصولي على جائزة نوبل فكرت كثيراً في الجزء الثاني من وصية أبي. كيف يمكن أن أترك أثراً ينير الطريق لصناعة آمال جديدة؟

وعندما جاءني حفيدي نوح مع أبيه وأمه لتهنأتي بالجائزة والإنجاز الكبير كان حينها يبلغ من العمر عشرون عاماً، يومها همس في أذني وهو يحتضنني قائلاً:

“يوما ما سأكون خليفتك وسأترك أثرا مثل أترك أو أكثر.”

في تلك اللحظة أمسكت وجهه بين كفيّ ولم أقل شيئا ولكني رأيت في عينيه لمعة طموح عظيم لن أنساها.

ومرت الأيام وحزنت كثيرا عندما رأيت الحياة تجرفه نحو الواقع التقليدي المرير الذي يحياه معظم الناس.

نعم لقد أصبح ناجحا في عمله ولكنه فقد روحه وقلبه في الطريق. فقد لمعة عينيه التي رأيتها عندما قال لي أنه سيكون خليفتي وسيتترك أثرا كأثري. فقد ذلك من أجل نجاح ظاهري صغير صاحبه فراغ داخلي أكبر.

ولذلك وعندما شعرت باقتراب أجلي عزمت الأمر على أن أحيي الأمل من جديد في حفيدي الذي لم يضيفي أحد لحياتي بهجة وسعادة مثله. لمعة العين تلك كان لا يمكن أن تنطفئ بهذه السهولة بسبب قسوة أو إغراءات الحياة.

حينها أعددت سلسلة من الوصايا ورتبت مع أعز أصدقاء لي طريقة وترتيب تسليمهم لها. فكل وصية تتطلب تنفيذ ما يسبقها بكفاءة حتى ينتقل للوصية الأخرى.

شكك الكثيرون في ثقتي وإيماني به وأدهشهم يقيني واصراري على أنه سيكمل المشوار حتى النهاية. ولكنهم معذورون لأنهم لم يروا لمعة عينيه في ذلك اليوم ولم يستشعروا عزمته وطموحه كما استشعرتها أنا.

وها هو نوح صالح بين أيديكم الآن. أسطورة آلة القانون في العالم وربما معه فرقة من أبرع عازفي العالم أيضاً لينير الطريق ويصنع آمالا جديدة لملايين البشر.

كم أنا فخور بك يا نوح، كم أنا فخور بك يا أعز الناس إلى قلبي. وأنا على يقين بأن كل واحد منكم سيصنع أملا لمن حوله ويترك أثرا لمن بعده ليظل الأمل حيا دائما في قلوبنا من أجل حياة أفضل لنا جميعا.

افتحوا قلوبكم لأنغام أوتاره الساحرة هذه الليلة وتذكروا كلماتي الأخيرة لكم:

أيها الإنسان لقد خلقك الله أملا.

أملا قبل أن تولد.

وأملا ساعة ولادتك.

وأملا بعد أن ولدت.

استقبلك الكل آمليين أن تكون حياتك استمرارا للخير واسهاما بحياة أفضل للجميع.

ومن ثم أصبحت الغاية من حياتك هي صناعة الأمل.

وفي يوم ما لمعت عيناك كحفيدي نوح.

لمعت عيناك وشهد قلبك ميلاد حلم عظيم.

ولكن مع الأسف فقد دفن هذا الحلم في نفس اللحظة التي استسلمت فيها للتقاليد أو لضغوط وإغراءات الواقع، وتملكتك سلطة الخوف والشك وكل تلك الخرافات التي أصابتك بالعجز والشلل وحجبت قدراتك وأطفأت لمعة عينيك ونور قلبك. ثم اختفت معها سعادتك وفقدت غايتك وأصبحت حياتك بلا حياة.

أيها الإنسان لا تنسى أنك خلقت عظيما لتصنع أملا عظيما.

أيها الإنسان انتبه فلقد حولتك الحياة إلى شخص يتوسل ويرجو لحظة سعادة حقيقية، بدلا من صناعتها.

أيها الإنسان تذكر أنك خلقت خليفة وليس ضحية، فأنت مؤيد من الله لتفرض الواقع لا ليفرض عليك.

أيها الإنسان لقد حان الوقت لتنهض وتستيقظ من غفلك وتعود لتحقيق الغاية من خَلْقك واستلام مقاليد خلافتك.

اعزف بأوتارك يا نوح أملا جديدا للعالم.

اعزفوا بعشق قلوبكم آمالا جديدة للبشرية.

اجعلوا من حياتكم حياة لمن حولكم ولمن بعدكم.

لا تجعلوا حياتكم تكرارا لمن سبقكم ولكن اجعلوها منارة لمن سيأتي بعدكم.

اجعلوا مما تعشقون ما يزيد الناس عشقا لخالقهم.

تعاونوا ولا تباعدوا.

اصنعوا الأمل.

وأنيروا الطريق لصناعة آمال جديدة.

أتمنى لكم بداية سعيدة لحياة عظيمة يا صنّاع الأمل.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

أنهى نوح رسالته وساد صمت مهيب قطعه تصفيق أحد الحضور أتبعه موجة عارمة من التصفيق ونهض الجميع من مقاعدهم لإظهار الإجلال والتقدير لهذه الكلمات والدموع تملأ أعين الجميع تقريبا، ولم يتمالك نوح نفسه فانهمرت دموعه تبلل وجنتيه ومرت دقائق قليلة حتى هدأ الجميع بمن فيهم نوح.

ثم ترك نوح المنصة وتوجه نحو منتصف المسرح حيث أُنيرت ثلاثة أضواء أظهرت آلة الناي والعود وآلة القانون البيضاء الساحرة الخاصة بنوح.

وما أن وصل إليها حتى ظهر رفاقه واحتضنوه ثم جلس الثلاثة كل في المقعد المخصص له وبدأوا العزف.

هذه المرة كان العزف مختلفا تماما، فقد صاحبه عرض رائع للضوء المسلط على الأهرامات الثلاثة. لقد كانت الألحان التي عزفتها الفرقة سبعة هذه الليلة ألحانا جديدة لم يسمعها العالم من قبل، ألحانا تجمع بين سحر الشرق وبين تقدم الغرب وآمال المستقبل. ألحانا تخترق القلوب وتذهبك إلى عالم من المتعة والصفاء لا مثيل له.

انتهى الحفل بعد مرور ساعة ونصف من العزف المتواصل وسط تصفيق وتهليل استمر أكثر من عشر دقائق ثم وقف نوح وفرقة لتحية الناس وشكرهم على محبتهم.

وفي هذه الأثناء لمح نوح المعلم باران، لمح باران شيروان وابنته التي استطاعت إقناعه بالحضور. كان باران يعيش الحلم مع كل نغمة يسمعها ولم يتمالك نفسه عندما رأى تلميذه بهذه الصورة المشرفة وبكى وصفق بحرارة وتمنى لو كان باستطاعته السير حتى يركض ليضم تلميذه الذي أصبح فخرا للجميع.

وما أن راه نوح حتى نزل من على المسرح وارتدى في حضنه قائلا:

“لا أصدق. لقد أضفت لسعادتي ألف سعادة يا أعظم معلم.”

ابتسم باران وقال بلهجة باكية:

“لم يكن من الممكن أن أفوت هذه الفرصة أبدا. استمر يا نوح في طريقك لتغيير العالم فأنت تستحق المزيد.”

توجه نوح ببصره إلى كلجين وبينما كان يحاول استجماع كلماته حدث ما لم يكن يتوقعه أو يضعه في حسبانته.

لقد كان صديق عمره محمود يقترب نحوه مع زوجته سالي ومعهما ابنته لارا وخلفهم على استحياء زوجته السابقة مريم.

لم يصدق نوح ما رأى وقبل أن يعلق قالت مريم:

“أعتذر لك بعدد الكلمات التي جرحت بها قلبك. لقد أعماني كبريائي من أن أرى الحقيقة وأن أشعر بك يا أعظم من أحب قلبي.”

شعرت كلجين بالإحراج ولكنها قالت والألم يعتصر قلبها بعد أن كانت تأمل في شكل آخر لعلاقتها مع نوح:

“زوجتك من أجمل النساء التي رأيت وابنتك تشبهها كثيرا يا نوح.”

ابتسم نوح وضم زوجته وابنته إليه ونظر لمحمود صديق عمره قائلاً:

“حان دورك يا صديقي. استعد لتغيير العالم يا محمود، كلمة السر سبعة”

ضحك نوح والجميع وأسدل الستار على المسرح وانتهى الحفل
الأسطوري ولكنها كانت بداية جديدة لعالم جديد يصنعه الأمل.

تمت

محمدي

www.Tohami.com